


سامي البجيرمي



# إرادة لا تعرف المستحيل




الدار المصرية اللبنانية

إرَادَة لاتعرِفُ المسُتحِيل

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م




طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة




AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH — PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

# إرادة لا تعرف المستحيل

سامي البجيرمي



الناشر
الدار المصرية اللبنانية

# الإهداء

إلى كل من يتسرب اليأس إلى نفسه بمجرد مصادفته لأي عائق أو عقبة عابرة في الحياة ، وينسى أن الله سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد وأنه - جل شأنه - أعدل العادلين ، إلى هؤلاء أهدي هذا الكتاب ...

المؤلف

# تقديـــم

## بقلم الدكتور حسن عبد الشافى

صدر فى نهاية الخمسينيات بالولايات المتحدة كتاب (First Lady Of Seeing Eyeh – تأليف موريس فرانك Morris Frank وقد أثار انتباهى عنوان هذا الكتاب الذى كان يبدو غامضا فى ذلك الوقت . ومالإن تصفحت الكتاب وقرأت مقدمته ، واستعرضت قائمة محتوياته ، كدأب كل مكتبى يقع بين يديه كتاب جديد ، حتى تبينت أنه يتناول موضوعا شائقا يختص باختيار وتدريب الكلاب التى تقود المكفوفين وتعاونهم على الانتقال من مكان إلى آخر ، دون الاعتماد على مرافق يتسع وقته أو لايتسع لتقديم المعاونة . وكان الكاتب يحكى فيه قصته الشخصية عن التعرف واستخدام أول كلبة تقود المكفوفين ، ويبين مدى الحب والارتباط الذى نشأ بينهما .

وكنت خلال دراستى الجامعية أعاون المرحوم الأستاذ حسن صبحى الصحفى الكبير وعالم الآثار المرموق ، الذى كف بصره بعد تجاوزه الخمسين من العمر ، فى إصدار نشرة « وكالة أنباء العالم الإسلامى » الذى كان يقوم بتحريرها ونشرها ، فضلا عن القراءة له عندما يطلب ذلك . فعرضت عليه الكتاب ، فاهتم به اهتماما كبيرا ،

وقرر ترجمته إلى اللغة العربية ، وبالفعل عاونته فى ترجمته ، وقام المرحوم الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس بمراجعة الترجمة ، وصدر بعنوان (الباصرة الأولى) ضمن سلسلة الألف كتاب عام ١٩٦٠ .

ومنذ ذلك الحين بدأ اهتمامى بالخدمات المقدمة للمكفوفين ، وبخاصة الخدمة المكتبية ، وأعددت بحثا عنها نشر بمجلة مكتبة الإدارة (عدد أكتوبر ١٩٧١) التى يصدرها معهد الإدارة العامة بالمملكة العربية السعودية .

وعندما اختار الأستاذ سامى البجيرمى أن يعمل فى مجال المكتبات المدرسية أشفقت عليه من اقتحام مجال صعب على المبصرين ، فما بالك بالمكفوفين ، إلا أنه زاول عمله بتحد واضح ، وإرادة صلبة لاتعرف الفشل أو الانهزام . وبدأ يقرأ كل مايتيسر له من المراجع فى علم المكتبات بعامة ، والمكتبات المدرسية بخاصة ، فضلا عن حضوره البرامج التدريبية المختلفة . وكنت أتابعه عن كثب ، حتى تأكدت من قدرته على القيام بأعباء هذه الوظيفة الشاقة ، خاصة الجانب الثقافى والأنشطة المتصلة به .

ولإيمانه القوى بقدرة المكفوفين على تحدى الإعاقة البصرية ، وإثبات وجودهم فى الحياة ، ببصيرتهم الواعية ، وبإرادتهم الصلبة ، أخذ يبحث عن المكفوفين الذين أثروا الحياة الفكرية والثقافية والفنية ، وفاقت شهرتهم كثيرا من المبصرين ، وينقب بصبر وأناة عن حياتهم وإنجازاتهم ، وجمع حصيلة لا بأس بها فى هذا المجال ، وكان عليه اختيار أبرزهم شهرة ، وأكثرهم عطاء ؛ ليتناول حياتهم فى

كتاب يعرض فيه ماتوصل إليه من أن الإعاقة البصرية لاتقف أمام المجدين والنابهين ، وإنما هى تحفزهم إلى التقدم والنمو الذاتى ، فضلا عن البذل والعطاء الثقافى والفنى ، فاختار ستة أعلام برز كل منهم فى مجال معين .

وإنى إذ أسعد بتقديم هذا الكتاب لأرجو مخلصا أن يكون حافزا للأستاذ سامى البجيرمى على البحث لإطلاعنا على المزيد من النماذج المشرقة ، الذين أصبحت حياتهم شموعا تنير الطريق لنا مبصرين ومكفوفين ، وأسأل الله سبحانه وتعالى له التوفيق والسداد فيما قصد إليه .

**دكتور حسن عبد الشافى**

# مقدمـــة

خلف أسوار الزمن ، ومع البدايات السحيقة للحياة على ظهر الأرض وجدت النزعة الإنسانية التى تتسع لتشمل المضمون الإنسانى فى كل شىء . وكان هناك شباب عرضت لهم إعاقات متعددة ، ولكنهم استعاضوا عنها بأمل مشرق فى غدٍ باسم . ولم تفلح هذه الظواهر المادية فى أن تنال من أنفسهم ، بل على العكس من ذلك فقد مضوا يدقون الأرض بخطوات الأمل ، ونبض التفاؤل ، فكان لهم السبق فى ميادين الحياة ، وخفقت قلوبنا مع إبداعاتهم ، وشاقنا الوقوف على كبير إنجازاتهم . ثم تكوّنت لدينا فكرة تسجيل تلك الإنجازات بالشكل الملائم لها ، والذى يضع أصحابها فى مكانة تليق بما قدموا لمجتمعهم على الرغم من ظروفهم .

وهذا الكتاب هو الجزء الأول من سلسلة خصصت لعرض قصص حياة ومعاناة بعض المعوقين الذين استطاعوا أن يثبتوا أن الإعاقة لن تكون حائلاً بينهم وبين الوصول إلى مايريدون ، وأن لديهم إرادة لاتعرف المستحيل .

والفائدة من عرض قصص هؤلاء المعوقين ، هى تعريف القراء - والمعوقين منهم على وجه الخصوص - بما استطاعت هذه النماذج تحقيقه بكفاحها وصبرها ومثابرتها ، وكيف أنها بذلك ترد رداً قوياً على كل من يتصور نفسه فى ظلام وظلمات ، ويتكدر عند مصادفته لأية عثرة فى الحياة .

وقد حرصنا فى هذه السلسلة - وهذا الجزء خاصة - أن نعرض لنماذج حَيةً تعيش بيننا الآن ، ونماذج أخرى عاشت فى الماضى ؛ حتى يستفيد القراء بمتعة المقارنة بين ظروف الشخصيات ، ومدى إنجازاتها بالنسبة لتحديات عصرها . وكان حرصنا شديداً على أن نلتقى بالنماذج الحيّة ونناقشها ونحاورها ونسترجع معها شريط ذكرياتها ونحن ننقل إليك - عزيزى القارىء - خلاصة تجربتهم فى الحياة بكل أمانة ، وأما عن السابقين فقد حرصنا على الاطلاع على مذاكراتهم ، ومذكرات من تتلمذ على أيديهم ، محاولين استخلاص أصدق صورة لحياتهم ، كل هذا مع مراعاة أن يكون موقفنا دائما موقف الحياد .

ويميز شخصيات هذا الجزء من السلسلة أن لكل منها تجربة فريدة ومتميزة فى الحياة ، وأن لكل منها رحلة شاقة ربما يود الكثيرون أن يتعرفوا على تفاصيلها ، فإذا مابدأنا بعميد الأدب العربى ، د . طه حسين - وهو من الشخصيات التى ستظل مصر تذكرها بمزيد من الفخر - فما أكثر مايمكن أن يقال عن هذا الابن المصرى المناضل الطموح ، الذى هزم ظروفه العاتية ، وقهر عاهته . جاء من أقصى الصعيد لاشىء معه إلا إرادته وعاهته الفادحة المعوِّقة والتى مهما كان

طموح من ابتلى بها - خصوصا فى ظروف تلك الأيام - فلن يتجاوز أكثر من أن يكون قارئاً يتلو سور القرآن الكريم فى المآتم وعند الأضرحة ، أو مؤذناً فى زوية ، أو عرِّيفاً فى كتَّاب . ولكنه بعاهته وطموح مصريته ، وعبقرية فطرها الله فيه ، استطاع أن يهزم المستحيل ؛ ليكون طه حسين كما عرفناه . وطه حسين كما عرفناه ثائراً لايهدأ ، لايخرج من معركة إلا ليدخل معركة أخرى ، لايعرف التراجع ، يجاهد من أجل رأيه غير مكترث بما يمكن أن يناله من جرَّاء تمسكه برأيه .. طه حسين كما عرفناه عميداً لكلية الآداب تفصله الحكومة ويعيده الطلاب ويتظاهرون من أجله ويتضامن معه مدير الجامعة الأستاذ/أحمد لطفى السيد . طه حسين كما عرفناه عشرات المؤلفات التى تقف شامخة فى تاريخ المكتبة العربية . طه حسين كما عرفناه هو الذى مكَّن لأبناء المعذبين فى الأرض أن يكونوا الآن وجه الحضارة فى مصر .

ثم تكون جولتنا التالية فى حياة « معجزة القرن العشرين » هيلين كيلر ، تلك الطفلة التى امتحنها الله فى بصرها وسمعها ولسانها وهى لم تزل فى المهد - إثر مرض قصير لم يطل - فلم تستكن ولم تنقم على الدهر ولم تلعن ظروفها ، ولكنها انطلقت - ومع أول فرصة أتيحت لها ؛ لتحتل مكانتها بين المتعلمين وأهل القلم ، وذلك فى معركة خاضتها من أجل أن تشق طريقها فى التعليم النظامى ؛ تحملت فيها الكثير والكثير وإلى جوارها ملاك الرحمة ، معلمتها السيدة « آن صاليفان » والتى رافقت هيلين كيلر قرابة الخمسين عاماً ، لم تفارقها لتضرب بذلك أروع أمثلة التضحية من أجل الغير . إن حياة هيلين

كيلر تثبت أن الإعاقة مهما كانت فداحتها يمكن أن تصبح حافزاً على المسير فى طريق الحياة والكفاح بعزيمة أشد وقدرة على مواجهة الصعاب ومثابرة لاتعرف الملل .

ثم نلتقى بأبى العلاء شيخ المعرة الشهير ، وأحد قلائل ممن شُهد لهم بالسبق فى تاريخ العرب كله ، أبو العلاء المعرى ذلك الشاعر الفيلسوف الذى شغل الناس حياً وميِّتاً بأفكاره المتشائمة عن الحياة والناس :

وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء
يقول لها من قبل نطق لسانه تفيدين بى أم تُنكبى وتُسائى

تلك الأفكار هى ذاتها التى ظلت تلح عليه حتى اعتزل الناس وسجن نفسه بإرادته بين حوائط منزله ، الذى لم يغادره طوال مايقرب من خمسين عاماً كاملة . على أن شهرة أبى العلاء لم تقتصر على أفكاره المتشائمة بل استحق – على الرغم منها – كل تقدير من أهل العربية ؛ جزاء عبقريته اللغوية المتفردة التى اتسعت لتشمل كل مناحى اللغة ودقائقها ؛ حتى ليمكن أى يقال إن أرض العرب لم تنجب – وحتى الآن – عبقرية لغوية تشبه عبقرية أبى العلاء المعرى .

ثم نقفز معا حواجز الزمن ؛ لننتقل إلى النصف الثانى من القرن العشرين ؛ لنلتقى مع شخصيات ثلاثة أخرى معاصرة لنا ، ومازال عطاؤها مستمراً حتى الآن . نبدأ حديثنا عن تجربة د. أحمد يونس وكيف تغلب على إعاقته واعتبرها دافعاً له ، وكيف تجرأ وهو ما زال

صبياً فى الخامسة عشرة أن يسافر إلى إسبانيا ويترك مصر ؛ ليكتشف أرضاً لم تطأها قدم كفيف مصرى من قبل ، كل ذلك ليثبت أن المعوق يستطيع اختراق حواجز المكان ؛ ويستطيع أن يخوض العديد من التجارب وهو على استعداد تام لأن تنجح هذه التجارب أو تفشل ، ومن خلال تحاورنا معه نتعرف على المصاعب التى واجهته فى أسبانيا ، وكيف تغلّب عليها ؛ ليعود إلى مصر حاملاً درجة الدكتوراه فى علم نفس الجمال ، ثم يمتد بنا الحوار ؛ لنتعرف على أسلوبه فى علاج المشكلة التى واجهته عند رفض الجامعات المصرية قبوله للتدريس بها ، ثم تحوّله إلى العمل الصحفى ؛ ليصبح الآن أحد الأقلام المرموقة فى دنيا الصحافة المصرية .

وتستمر الرحلة حتى نصل إلى إحدى العبقريات الموسيقية فى عصرنا الحديث ، عبقرية الفنان عمار الشريعى . عمار الشريعى الذى ولد لإحدى الأسر العريقة فى صعيد مصر ، ثم التحق بالمركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين ؛ لينال نصيبه من التعليم . فى هذا المركز تفتحت موهبة عمار الموسيقية ، فى هذا المركز أدرك عمار أنه خلق لكى يكون فناناً . فنراه بعد تخرجه من الجامعة يحترف العمل بالموسيقات مخالفاً بذلك رغبة أسرته العريقة ، رافضاً أن تكون الثروة حائلاً بينه وبين موهبته ، مفضّلاً التخلى عنها إن كان عليه أن يختار بينها وبين الموهبة ، وليبدأ عمار الشريعى طريقه من أسفل درجات سلم المجد الموسيقى حتى وصل الآن إلى أن أصبح قمة معدودة بين القمم الموسيقية فى العالم العربى .

وتنتهى الرحلة مع د . سعيدة محمد حسنى تلك الفتاة الريفية البسيطة التى كُفّ بصرها إثر جراحة لم تنجح ، وليظلم مستقبلها بعد إظلام عينيها . هذه الفتاة التى ظلت تعانى من الأُمّيّة حتى قاربت سن الخامسة عشرة ، فبدأت طريق الألف ميل ، وحصلت على شهادة محو الأمية ، ثم استمرت تقطع طريق التعليم خطوة خطوة ، متحملة فى سبيله كل مشقة ومكابدة ، تعمل بالنهار ؛ لمواجهة ظروفها المعيشية الصعبة ، وتدرس بالليل ؛ لتشبع نهمها للعلم والمعرفة ، حتى استطاعت بعد كفاح طويل أن تحصل على درجة الدكتوراه فى التاريخ فى عام ١٩٨٩ م .

***

هذه الرحلة التى تبدأ بعميد الأدب العربى د . طه حسين ، وتنتهى ب د . سعيدة محمد حسنى – ماهى إلا عرض مختصر لحياة أولئك المعوقين الذين أرادوا أن يثبتوا لغيرهم – من المعوقين والأسوياء على حدٍ سواء – أنهم نوع من البشر يستطيع أن يصل إلى مايريد مهما كانت المعوقات ، وأن لديهم إرادة لاتعرف المستحيل .

على أنه لايمكننا القول بأن هذه الشخصيات التى نعرض لها على صفحات هذا الكتاب هى كل الشخصيات المعوقة التى نجحت فى أن تثبت ذاتها ، ولكنهم بعض نماذج مختارة غيرها كثير ، ونحن نعد بعرض أكبر قدر من قصص حياة المعوقين الذين تفوقوا فى مجالاتهم فى بقية أجزاء السلسلة القادمة – إن شاء الله – ومن أجل العمل على تحقيق ماوعدنا به حددنا لأنفسنا خطة نسير عليها ، ألا وهى تخصيص

كل جزء من أجزاء السلسلة لنوع معين من أنواع الإعاقة فبدأنا - في هذا الجزء - بمجموعة من المعوقين مكفوفي البصر على أن يليه - إن شاء الله - بعد ذلك أجزاء أخرى تتعرض للمعوقين حركيًا وغيرهم من شتى أنواع المعوقين .

ولاننسى في النهاية أن نذكر أن المعوق لايستطيع - مهما كانت قدراته - أن يعمل بمفرده ، ولكنه يحتاج إلى مساعدة الأسوياء المحيطين به . وعلى ذلك فإن هذه النماذج ليست وحدها الجديرة بالتقدير والاحترام ، ولكن يشاركها في ذلك كل من تفهّم قدراتها وساعدها على أن تتخطى أية عثرات قد تقابلها في طريق تقدمها نحو الهدف . ومن هذا المنطلق فنحن في كل قصة من قصص كتابنا سنحاول أن نظهر هذه الأدوار المساعدة التي كان لها تأثير كبير على الشخصيات التي عرضنا لها - ماوجدنا إلى ذلك سبيلاً .

**وأخيراً :**

لايسعني إلّا التقدم بالشكر لكل من تفضّل بالمساهمة في تسهيل مهمتي ، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور حسن عبد الشافي مدير عام المكتبات بوزارة التربية والتعليم على ما أفسح لي من وقته وخبرته ومشورته ، كما أتقدم بالشكر لأستاذي ومثلي الأعلى ؛ والدي الأستاذ/حسن البجيرمي مدير عام المكتبات المدرسية الأسبق .

**المؤلف**

**سامي حسن البجيرمي**



# طـــه حســـين

## ثائر تحت العمامة

## طه حسين

# ثائر تحت العمامة

لايمكن أن نذكر بعضاً من أولئك الذين لم يستسلموا لأقدارهم ، دون أن نخص فى جزء غير قليل - عميد الأدب العربى ؛ د . طه حسين ، ذلك المكفوف العربى الذى لم يقنع بأنِ يكون دوره فى الحياة شحاذاً على أبواب المساجد ، أو محفِّظاً للقرآن فى أحد كتاتيب القرية ، ولكنه رأى بعين بصيرته أن له دوراً فى الحياة أكبر من ذلك وأكثر تأثيراً .

طه حسين ، ذلك الفتى العربى الذى استوعب رموز الحضارة الغربية ، وأخرجها لنا فى ثوب عربى يتلاءم مع العقلية العربية .

ولدت هذه العبقرية فى قرية (عزبة الكيلو) من قرى صعيد مصر التابعة لمركز مغاغة بمحافظة المنيا فى عام ١٨٨٩ م وكان أبوه - ويدعى « حسين سلامه على » - يعمل بشركة السكر ، وأسرة العميد تعيش - آنذاك - فى حال متوسطة من العيش . كانت طفولته عادية كطفولة أقرانه من أبناء قريبة ، إلى أن أصيب وهو فى السادسة من عمره بمرض الرمد الصديدى الذى حوَّل حياته تدريجياً

إلى ظلام دامس ، ولم تفلح أى محاولة لمنع هذا المصير ، بل على العكس فقد أدى الإهمال والجهل إلى الإسراع بضياع نور عينى الطفل طه ، وكان طه فى أول عهده بحاله - تلك الجديدة عليه - يشعر بحزن عميق ، يخفيه داخله ولايبديه لأحدٍ ، ويالشدة حزن طفل فى مثل سنه حين يسمع إخوته وهم يتحادثون عن أشياء لايراها ولايعلم شيئاً عن وصفها . لم يكن كذلك الطفل الصغير الكفيف ليستطيع أن يشارك إخوته فى لعبهم ولهوهم ، فانصرف الطفل طه إلى أشياء أخرى ؛ ليسلو بها عما كان يجب أن يستمتع به من هم فى مثل سنه ، انصرف إلى حب الاستماع إلى القصص الشعبى يرويه شاعر الربابة فى ليالٍ لم تكن فى ظلمتها أشد مما يعيش فيه ، سواء فى ليله أو نهاره ، ثم بعد ذلك بدأ الفتى يهتم بأشياء تتناسب مع طبيعة حياته التى لايرى فيها شيئاً ، بدأ الفتى يهتم بشيئين اهتماماً خاصاً : وهما السحر ، والتصوف ، فلم يكن الفتى يحس فرقاً بين الساحر والصوفى إلا أن الأول يتصل بالجن والآخر يتصل بالملائكة .

وكان طبيعياً أن يفكر الأب فى مستقبل ابنه المكفوف ، وخاصة بعد أن منَّ الله على طه فحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ، واهتدى الأب إلى أن يرسل ولده الكفيف مع أخيه ؛ ليدرس فى الأزهر بالقاهرة ، وليصبح شيخاً أزهرياً كأمنية معظم المكفوفين فى عصره . وأخذ الصبى ينتظر الوقت الذى يسافر فيه إلى القاهرة ، وكان شرط أخيه كى يوافق على اصطحاب طه معه ؛ أن يحفظ طه « ألفية ابن مالك » وأجزاء من كتاب « مجموع المتون » وجاء اليوم الموعود ، يوم السفر إلى القاهرة ، واستطاع الصبى أن يتكلف الابتسام ، مع

ماكان يعتصر قلبه من حزن على أخيه الذى راح شهيداً فى أثناء مقاومته وباء الكوليرا .

ونترك الحديث لعميد الأدب العربى ؛ د . طه حسين ؛ ليقدم لنا كيف كانت حاله عند قدومه إلى القاهرة كما وصفه فى كتابه « الأيام » : « عرفته فى الثالثة عشرة من عمره ، حين أرسل إلى القاهرة ؛ ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر ، إن كان - فى ذلك الوقت - لصبى جدٍ وعمل . كان نحيفاً ، شاحب اللون ، مهمل الزى ، أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى ، تقتحمه العين اقتحاماً - أى تحتقره - فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سوادٍ قاتم ، وفى هذا القميص الذى يبين من تحت عباءته ، وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة ماسقط عليه من الطعام ، وفى نعليه الباليتين المرقعتين ، تقتحمه العين فى هذا كله ، ولكنها تبتسم له حين تراه على ماهو عليه من حالٍ رثة وبصرٍ مكفوف ، واضح الجبين ، مبتسم الثغر ، مسرعاً مع قائده إلى الأزهر ، لاتختلف خطاه ، ولايتردد فى مشيته ، ولاتظهر على وجهه تلك الظلمة التى تغشى عادة - وجوه المكفوفين ، تقتحمه العين ، ولكنها تبتسم له وتلحظه فى شىء من الرفق حين تراه فى حلقة الدرس مصغياً كله إلى الشيخ ، يلتهم كلامه التهاماً ، مبتسما مع ذلك ، لامتألما ولامُتبرماً ولا مُظهراً ميلاً إلى لهو ، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبون إلى اللهو » .

ثم يستكمل العميد واصفاً لنا - فى موضع آخر - ماتحمّله فى سبيل العلم والدرس من مشاق ، فيقول : « عرفته ينفق اليوم

والأسبوع والشهر والسنة لايأكل إلا لوناً واحداً من الطعام ، يأخذ منه حظه فى الصباح ويأخذ منه حظه فى المساء ، لاشاكياً ولامتبرماً ولامتجلداً ولامفكراً فى إن كانت حالة خليقة بالشكوى أم لا .. لقد كان ينفق الأسبوع والشهر لايعيش إلا على خبز الأزهر ، إن كانوا ليجدون فيه ضروباً من القش ، وألواناً من الحصى ، وفنوناً من الحشرات . وكان ينفق الأسبوع والشهر لايغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود » .

على أن الأزهر بدأ يصقل شخصية طه حسين ، وفطن الفتى إلى بعض المفاهيم الدينية الخاطئة التى تشيع فى الريف ، وعند عودته إلى قريته أثناء العطلة الصيفية كان يشارك فى تلك المناقشات التى كانت تدور بين والده وسيدنا – محِّفظ القرآن – وكان طه جريئاً فى الحق ، فقد استنكر على أبيه قراءته فى كتاب « دلائل الخيرات » وقال له : « تعلمت فى الأزهر أن كثيراً مماتقرؤه فى هذا الكتاب حرام يضر ولاينفع ، فما ينبغى أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء ، وماينبغى أن يكون بين الله والناس أى واسطة ، وإنما هذا لون من ألوان الوثنية » غضب الشيخ حسين من ولده طه ، ووبّخه وهدده بحرمانه من الذهاب إلى الأزهر إن هو عاد إلى هذا الكلام . ولم تكن هذه هى النهاية ، بل على العكس ، فقد أمدَّت تلك الواقعة فتانا بكثير من الشجاعة والقدرة على مواجهة الناس ، فخرج على الجميع بآرائه فى شجاعة ، لايهمه من يحاوره ، واستطاع أن ينتزع اعتراف أهل القرية والمدينة على حدٍّ سواء .

وكانت هذه هى المؤشرات الأولى التى تنطق بأن هناك عبقرية جديدة ، أن هناك ثائراً تحت العمامة ، يثور على الجهل وكل ماهو جامد خاطئ .

استطاع طه حسين فى تلك السن المبكرة أن يشدَّ اهتمام من حوله ، وكان طه فى سنه تلك يحب أن يخلو لنفسه مع من يقرأ له ، وماأكثر ماكان يقرأ ، وماأشد تنوع قراءاته . ساعدته هذه القراءات بجانب الدراسة فى الأزهر على اتساع مداركه ، وتفتيق ذهنه ، فأصبح عقله كما لو كان دائرة معارف ؛ ومن ثم بدأ يتبرم بأساليب التعليم وموضوعات الدراسة بالأزهر ، فقد وجد فيها جموداً يحتاج إلى ثورة من أجل التجديد ، ويشاء الله أن يهيئ لطه متنفساً جديداً بدلاً من الأزهر : ففى هذا العام سنة ١٩٠٨ م افتتحت أول جامعة مصرية أهلية ، فيهرع الطلاب إلى مدرجاتها ؛ ليستمعوا إلى محاضرات ودروس الأساتذة ، ولم يكن معنى هذا انقطاع طه عن الأزهر ، بل إن طه كان يذهب إلى دروس الأزهر صباحاً وإلى دروس الجامعة مساء ، فإذا به يجد للحياة طعماً جديداً ، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وأساتذة لاسبيل إلى الموازنة بين مايدِّرسون ومايدرس فى الأزهر .

وارتبطت الجامعة فى ذهن طه بالحرية والاستقلال واحترام الطلاب ، وبمرور الوقت بدأ اهتمام طه بالأزهر يفتر ، وأصبح يقضى وقته — بعد ذلك — فى دار الكتب صباحاً وفى الجامعة مساءً ، ثم تعرَّف طه على أساتذة أجلاء ساعدوه على البحث والدراسة ، بل وعلى الكتابة

والنقد ، ولم يكد طه يأخذ فى الكتابة حتى عُرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد قلما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الأيام . وطول اللسان هو الذى قطع الصلة قطعاً حاسماً بينه وبين الأزهر . وأصبح طه كاتباً بفضل موهبته ودراساته وتشجيع أساتذته له ، وظل طه يكتب قرابة عشرة أعوام دون أن يكسب شيئاً ، وحتى كتابه الأول عن أبى العلاء المعرى نشر دون أن يفيد طه من نشره قليلاً أو كثيراً ، ومع ذلك فقد كان صدور الكتاب إرضاءً واحتراماً لشخصه .

وقد أحب طه أبا العلاء وانكبَّ على دراسته ، وبخاصة أن أبا العلاء كان يعانى من كف البصر أيضا ، فاتخذ منه طه نموذجاً فى النجاح والشهرة ، وفكر طه فى عمل بحث عن هذا الشاعر الفحل ؛ ليتقدم به لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية – جامعة القاهرة حاليا – وبالفعل ، أتمَّ الرسالة ، وحصل طه على دكتوراه تمنحها الجامعة سنة ١٩١٤ م بتقدير جيد جداً .

عشق طه الأدب ، وأحب العلم ، واستولت على نفسه طموحات كثيرة ، وأخذ يحلم بأن يكمل دراسته فى الخارج ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟

بدأ طه يوسع دائرة معارفه ، وينهل من الأدب الأوربى ، وبخاصة الأدب الفرنسى ، وذلك بعد أن تعلم اللغة الفرنسية وأتقنها ، وقد اطلع طه – من الأدب الفرنسى – على كتابات « لامارتين » « الفريددى موسيه » « شاتوبريان » « الفريددى فيتى » وغيرهم .

وفى ذات يو م ، أعلنت الجامعة فى الصحف عن وجود بعثتين للدراسة فى فرنسا فى موضوعين هما : التاريخ والجغرافيا .. وأحس طه أنها فرصته التى يجب ألا لا تضيع وأنه لا بد أن يكون واحداً من الاثنين .. وكتب طه إلى رئيس الجامعة المصرية خطاباً يعبر فيه عن مدى حرصه على السفر إلى فرنسا لدراسة التاريخ ، وكم لاقى طه من متاعب وعقبات فى طريقه لنيل البعثة ، كانت كفيلة بأن تجعله يلغى الفكرة ، ولكن ليس طه حسين ذلك الذى يتراجع أو ينهزم !! أصرّ طه على البعثة وجاهد فى سبيلها وفاز !

فاز طه بالبعثة ، وحقق أمنيته فى السفر إلى بلاد النور والمعرفة سنة ١٩١٤ ولكن – وكما توقع طه حسين – لم تكن الحياة بعامة ، والدراسة بخاصة أمرا سهلا ميسوراً ، فلقد عانى الكثير من الصعوبات ، كان من أهمها ضعف إمكاناته المادية مع احتياجه الدائم إلى مرافق يقرأ له ، ولكن لم تكن الحياة لتظل على ذلك الوجه العابس الذى تعوّده طه منها ، فلقد بدأت الحياة تبتسم له إذ أهدته هدية ثمينة كان لها أكبر الأثر فى حياة عميد الأدب العربى ، أهدته سوزان عينين جديدتين يبصر بهما ماحرم من رؤيته . ومن حظه أنها كانت تهوى القراءة والأدب ، فكانا يسهران الليالى ، هى تقرأ وهو يسمع ، وكانت هذه هى سعادتهما الحقيقية ، وكانت الكتب ترافقهما حتى فى عطلة نهاية الأسبوع .

ولابد لنا أن نعترف بأن سوزان كانت لطه بمثابة المعلم الأول فى فرنسا ، فهى التى وقفت بجانبه وشجعته على الدراسة ، وكانت تقرأ

له ليل نهار بالفرنسية أحياناً أو اللاتنية واليونانية فى أحايين أخرى ، وقد تزوج طه بسوزان ؛ ليبدأ معها طريقه الشاق الذى رسمه لنفسه ، وكانت سوزان خير عون له على المضى فى ذلك الطريق .

وفى عام ١٩١٧ م استطاع طه حسين الحصول على درجة الليسانس فى الآداب من السوربون ، وفى العام التالى ١٩١٨ م نوقشت رسالة الدكتوراه التى تقدم بها طه ، وكانت عن « فلسفة ابن خلدون » .

وفى عام ١٩١٩ م عاد الدكتور طه حسين إلى مصر ومعه زوجته سوزان وابنتهما أمينة . عاد الدكتور طه حسين ثائراً على الجهل والفساد ، يريد لوطنه أن ينال ما يستحقه من مكانة بين الأمم .

وبعد عودة د . طه حسين عين أستاذاً للتاريخ القديم فى الجامعة ، واستمر فى عمله هذا حتى عام ١٩٢٥ م؛ وهو العام الذى أصبحت فيه الجامعة حكومية بعد أن كانت أهلية منذ افتتاحها عام ١٩٠٨ م ؛ فى هذا العام عين الدكتور طه حسين أستاذاً لتاريخ الأدب العربى فى كلية الآداب . ثم شغل د . طه حسين العديد من المناصب منها أنه كان عميداً لكلية الآداب أعوام ١٩٢٨ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ م ومديراً لجامعة الإسكندرية « فاروق الأول » ووزيراً للمعارف العمومية فى الفترة من ١٣ من يناير ١٩٥٠ إلى ٢٦ من يناير ١٩٥٢ م ومديراً للثقافة بالجامعة العربية ، ورئيسا للمجمع اللغوى المصرى .

وقد سجل لنا د . طه حسين عصارة تفكيره فى كتبه التى آثرى بها

المكتبة العربية والعالمية ، والتى بلغت حوالى ٦٥ مؤلفاً ومترجماً .. وقد كتب د . طه حسين فى كل فنون الآداب وفروعها ، ولعل من أشهر كتبه : الأيام ، فى الأدب الجاهلى ، الشيخان ، صوت أبى العلاء ، حديث الأربعاء ، المعذبون فى الأرض ، شجرة البؤس ، على هامش السيرة .

ظل طه حسين يساهم فى تكوين العقلية والثقافة العربيتين أكثر من نصف قرن من الزمان بقراراته الشجاعة عندما كان وزيراً للمعارف ؛ إذ أعلن أن التعليم ضرورى لكل إنسان ضرورة الماء والهواء ، وكان قراره العظيم بجعل التعليم مجانياً فى مراحله الأولى ، وحاول أن يجعل التعليم العالى كذلك فلم يستطع ، ومن الجدير بالذكر أن العملية التعليمية نشطت فى عهد طه حسين نشاطاً كبيراً ، وانتشر لتعليم انتشاراً واسعاً .

انفرد طه حسين عن بقية رواد عصره ببعض الأشياء ، من بينها رؤيته للحياة والأدب ، وكذلك نظرته لعملية الإبداع الفنى .

## مذهب طه حسين فى الحياة والأدب ..

يختلف الناس فى تسميته ولايختلفون فى وجوده.فيسميه بعضهم نظرة الرجل إلى الحياة . وبعضهم الآخر : رأيه فى الحياة .. وفريق ثالث : مذهبه فى الحياة ، ورابع : فلسفته فى الحياة .. ولكن الأقوال جميعاً تؤدى مدلولاً واحداً ؛ هو تلك الفكرة التى تسيطر على المرء فتلون أفكاره ، وتصبغ مشاعره ، وتوجه خطواته ، وقد تكون هذه

الفكرة بسيطة واضحة فيجمل تسميتها بالمذهب ، وإن قطعت شرطاً بعيداً فى النضج والترق فتسمى بفلسفة الحياة . والوصول إلى مذهب أديب ما قد يكون أمراً يسيراً عند الحديث عن بعض الأدباء ، ولكنه قد يكون عسيراً كل العسر عند بعضهم الآخر . ومهما يكن الأمر عسراً ويسراً ، فالواجب على الباحث عن مذهب الأديب أن يقرأ آثاره جميعا قراءة واعية نافذة ، تحاول أن تستشف كل الدلالات الظاهرة والباطنة ، وتحسن جمعها وفهمها والانتهاء إلى نتائجها العامة .

ولحسن الحظ كفانا د . طه حسين – الذى نود دراسته – مؤنة هذا البحث ، ومزلة الخطأ والانحراف ، حيث أبان عن مذهبه فى الحياة فى كتابه ( هذا مذهبى ) وأبان فيه كذلك نخبة من مفكرى الشرق والغرب مذاهبهم وفسروها .

ركز د . طه حسين فى عبارة واحدة جعلها عنوانا للفصل الذى عقده لنفسه وهى « حب للمعرفة وصبر على المكروه » وأجمله فى نهاية الفصل فقالَ : « كذلك عرفت من طبيعة نفسى خصالاً هى أستطيع أن أقول : إنها كونت مذهبى فى الحياة : ظمأ إلى المعرفة لا سبيل إلى تهدئته ، وصبر على المكروه ، ومغالبة للأحداث ، وطموح إلى اقتحام المصاعب فى غير حساب للعواقب ، وجهر بما أرى أنه الحق مهما يعرضنى له ذلك من الخطوب ، ثم شعور كأقوى مايكون الشعور بالتضامن الاجتماعى يفرض علىّ أن أحب للناس من الخير ما أحب لنفسى » .

## الإبداع الفنى عند د . طه حسين

عندما تصدى النقاد القدماء للأثر الفنى لحظة إنتاجه قسّموه إلى أثر مرتجل ، وغير مرتجل ، وعرّفوا المرتجل بأنه الذى يبتدئه الأديب من غير أن يهيئه قبل ذلك ، وذكروا قصائدَ وخطباً ذهبوا إلى أن أصحابها ارتجلوا على هذا النحو ، وفى العصر الحديث تصدى لدراسة الأدب والأدباء باحثون هيئوا أنفسهم لهذه الدراسة بمطالب غريبة عما كان نقاد الأدب القدماء يطالبون أنفسهم به ، وبحثوا عن أمور لم يكن هؤلاء النقاد يتخيلون إمكان بحثها أو لم يدر ذلك بخلدهم ، وأقصد بهؤلاء الباحثين علماء النفس .

وقد حاول علماء النفس دراسة الفنان فى لحظة إنتاجه لفنه،أى ماكنا قديماً نطلق عليه لفظاً عاماً هو الإلهام . وأطلقوا على مايقوم به الفنان – حينئذ – الإبداع الفنى ، وتعددت الأبحاث فى هذا العمل البشرى الغامض الذى رده القدماء إلى قوى غير بشرية ، عندما تعذر عليهم إدراك كنهه .

أما د . طه حسين فيذهب إلى أن الإبداع الفنى تلقائى لا إرادى ، فهو لايستجيب للأديب كلما دعاه ، وإنما ينبغى أن يكون الأديب نفسه على أهبة الاستعداد لإجابة الأدب حين يدعوه . وبين الأدب والأديب فنون من الخصام والعناد يعرفها الأدباء المطبوعون . فما أكثر مايريد الأديب الكتابة ويتهيأ لها يدعوها بماألف من وسائل الدعاء ويلح عليها ، ولكنها لاتحفل به ولا تستجيب له وما أكثر

مايكون الأديب ماضيا فيما يمضى الناس فيه من أمور الحياة ، لا يفكر فى نثر ولا فى شيء يشبه الشعر أو النثر من قريب أو بعيد ، ولكن داعى الكتابة يدعوه ويلح عليه ، ثم يملك عليه نفسه ، وإذا هو ينصرف عما كان ماضيا فيه إلى الكتابه والإنشاء . ولبيان ذلك روى قصة الحريرى – الذى أعجب الناس بمهاوته وبراعته فى المقامات – حين أراد أحد الأمراء أن يختبر طبعه وقدرته على الاستجابة لدعوة الفن . فطلب إليه أن يكتب لساعته بعض ماتعود من مقاماته ، فأقبل الحريرى على دواته وقرطاسه ، وانتظر وأطال الانتظار ، وجد وكلّف نفسه من الجد ما لم تُعوّد ، ولكنه لم يصنع شيئاً ، وسخر الناس منه ، ولم يكن من حقهم أن يسخروا .

ويبين د . طه حسين أن الكتّاب على الرغم من معرفتهم بذلك يحاولون أن يستدرجوا الإبداع الفنى ويغروه . ولهم فى سياسته ورياضته وتذليله وتدليله فنون ومذاهب يمكن أن يطول فيها القول الذى لايخلو من طرافة ، ولايتعرض لسآمة أو إملال . ومن أمثلتها قول أحد شيوخ المعتزلة لطلابه : « خذ من وقتك ساعة نشاطك وفراغ بالك » .

ويؤكد د . طه حسين فى بداية كتابه « المعذبون فى الأرض » على تلقائية الإبداع الفنى وإلغاء إرادة الكاتب فيها وفيما تعطيه من أثر فنى ، فالكاتب لاشأن له بالعملية ولا بالإطار العام للأثر الفنى ولا بالصور الجزئية فى داخل هذا الإطار ، وإنما هو كلام يخطر له فيمليه ، ثم يذيعه ، فالمهم أن يخطر له الكلام ، وأن يمليه وأن يذيعه ،

ولا يقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بينه وبين مايجب أن يسوق من حديث فيشكلّه وفق مايريد .

ويعود د . طه حسين إلى ترديد هذه الأقوال فى نهاية الكتاب فيؤكد : « أنه لم يختر – ولم يكن مستطيعاً أن يختار – زمان القصة التى يكتبها ومكانها ، كما أنه لم يختر – ولم يكن مستطيعاً أن يختار – أشخاصها وأحداثها ، وإنما اختارت طبيعة الأشياء هؤلاء الأشخاص وأجرت طبيعة الأشياء عليهم ما أجرت من الأحداث ، وأرادت أن يكون هذا فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى . وماطبيعة الأشياء التى نتحدث عنها إلا الإطار الذى توضع فيه الصور الجزئية التى منح الكاتب إياها الإبداع الفنى ، فلا حول له ولا طول فى العمل كله ، بل يكاد د . طه حسين يقطع بأنه لم يختر هذه القصة موضوعاً لهذا الحديث الذى ينشره على الناس ، وإنما هى التى اختارته ؛ لتصل من طريقه إلى القراء ؛ فقد فرضت نفسها عليه فرضاً عندما فرغ أياماً لدراسة موضوع من الأدب الفرنسى ، وجلس إلى صاحبه ليمليه ويسمع منه بدء هذا الحديث الذى لايتصل بما كان مزمعاً عليه من قريب ولا بعيد » .

قضى د . طه حسين حياته فى خدمة العلم والأدب مجاهداً بقلمه لإرساء قواعد الفكر العربى الحديث حتى كانت السنوات الأخيرة من عمره ، فاشتد عليه المرض ، وكانت هذه السنوات خالية من الإنتاج الفكرى والعطاء المتدفق الذى تعوّده الشعب العربى من عميد أدبه .

وفى يوم الأحد الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ م انتهت هذه

الملحمة من الكفاح والنضال ، ورحل د . طه حسين عن عالمنا ، تاركاً لنا ثروة كبيرة من الفكر والأدب هى أفضل مايورثه ابن بار لأبناء وطنه . وشيعت جنازته من حرم جامعة القاهرة ، ذلك المكان الذى شهد معاركه العلمية والأدبية ؛ عرفاناً من الجامعة لفقيد العربية بدوره العظيم فى دعم الثقافة العربية .

إن طه حسين عبقرية ستظل محفوظة بحروف من نور كإحدى العبقريات التى أسهمت بشكل مؤثر فى تشكيل الفكر العربى المعاصر .



## معجزة القرن العشرين

# هيلين كيلر

## هيلين كيلر

يدعى الكثير من الناس أن عصر المعجزات كان مرتبطاً بعصر النبوة ، وبانتهاء عصر النبوة لم يوجد مايسمى بالمعجزة ولكن !!

جاءت هيلين كيلر فى نهاية القرن التاسع عشر ؛ لتثبت للجميع أن إرادة الله تفعل ماتريد وقتما تريد ، وأن إرادة الله غير مرتبطة بعصر معين . لقد كانت هيلين كيلر بمثابة معجزة بشرية تتحرك أو فلنقل إنها كانت رسالة من الله للناس أراد إبلاغهم من خلالها أن قدرته - سبحانه وتعالى - غير محدودة وغير منتهية .

إن شخصية هيلين كيلر شخصية ملفتة للنظر جديرة بالإعجاب ، ومدار هذا الإعجاب أن فتاة حرمت السمع والبصر والكلام قبل أن تتم الثانية من عمرها ، واضطرت أن تعيش وحيدة فى عالم موحش كله صمت مطلق وظلام حالك ، استطاعت بما بذلته من جهود جبارة أن تغالب الأقدار وتصمد للمحن الدائمة المفروضة عليها ، فتتعلم الكلام والقراءة والكتابة وتعبر عن خواطرها ، وتتفاهم مع الناس وتتصل بهم بطرق غير الطرق التى يعبرون بها عن أنفسهم

ويتفاهمون بها بعضهم مع بعض ، وتطلب العلم وتنافس أقرانها غير المحرومين ، وتشاركهم فى شتى ألعابهم وضروب نشاطهم ، وتؤدى الامتحان مع المبصرات السامعات ، وتنال درجات علمية مثلهن ، وتمتاز عليهن فى اللغات ، ثم تصبح كاتبة مرموقة ، ومحاضرة مسموعة ، ولغوية واسعة العلم باللغات ، وداعية نشيطة إلى العمل على توفير السعادة لمن حرمتهم الحياة نعمة الاستمتاع بحاسة أو أكثر من الحواس ، فتعمل من يوم تخرجها فى جمعيات عدة للترفيه عنهم والنهوض بهم ، وتحث الناس على التفاؤل والرضا والاستمتاع بما حولهم من شتى المتع الطبيعية ووسائل الترفيه البريئة .

ولدت هذه الكتابة الموهوبة - التى لاسمع لها ولا بصر - فى السابع والعشرين من شهر يونيه سنة ١٨٨٠ م فى تسكامبيا وهى بلدة تقع فى ولاية ألاباما فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتنحدر هيلين من أصل سويسرى ، هاجر جدها كسبار كيلر إلى أمريكا واستقر حينئذ فى ولاية مارى لاند .

كانت هيلين وحتى اليوم الذى مرضت فيه بذلك المرض الذى سلبها بصرها وسمعها - كانت تسكن بيتاً صغيراً لايحتوى إلا على حجرة فسيحة مربعة الشكل وأخرى ينام فيها الخادم ، وقد بنى والدها هذا البيت ؛ ليسكنه بعد زواجه من والدتها ، وكانت أشجار الكروم والورود المتسلقة والياسمين البرى تغطى البيت كله حتى إذا مانظر شخص إليه من الحديقة بدا له خميلة لابيتاً ، وحتى مدخله الصغير كانت تحجبه عن الأنظار بعض الورود الصفراء وبعض من

نبات « الاسميلاكس » وفضلاً عن ذلك فإنه موئل حبيب تألفه النحل والعصافير .

أما « دار كيلر » الكبيرة – حيث تسكن الأسرة – فكانت على بعد خطوات من البيت الذى تسكنه هيلين . وكانت دار كيلر الكبيرة تسمى « ايفى جرين » وهذه الدار أيضا محوطة بالأشجار والنباتات الجميلة . وكانت هيلين قد ارتبطت بهذه الدار بعد إصابتها بمرضها العضال ، حيث اعتادت الذهاب إلى حديقة هذه الدار للبحث عن أزهار البنفسج والسوسن ، وكانت تتحسس طريقها إليها على السياج المكون من أشجار البقس القاسية المربعة الشكل مهتدية بحاسة الشم .

فى الأشهر الأولى من حياة هيلين كيلر بدت عليها بعض العلامات التى توضح نوعية شخصية تلك الطفلة وكيف يمكن أن تصبح ذات طبع حاد مسيطر ، حيث كانت هيلين تصر أن تحاكى كل شىء تحس أن الناس يفعلونه . ومن الجدير بالذكر أن هيلين كيلر استطاعت السير وهى لم تتم سنتها الأولى بعد .

على أن القدر لم يكن ليصمت على هذا النبوغ المبكر ، وكان عليه أن يلعب لعبته القاسية التى عوّد البشر عليها ، فلم تدم هذه الأيام الجميلة فى حياة هيلين طويلاً ؛ إذ لم تزد على ربيع قصير الأمد زاخر بالموسيقا الصادرة من تغريد الطيور ، وصيف حافل بالثمار والأزهار ، يتلوه خريف مزهو بالألوان الذهبية والقرمزية ، تلك فصول ثلاثة مرت بها وتركت هباتها وخيراتها بين يدى طفلة صغيرة مرحة كل

المرح ، ثم كان شهر فبراير القاسي الكئيب ؛ ففيه اُمتحنت هيلين بذلك المرض الذى أغلق عينيها وأصم آذانها ، وألقى بها فى غيابة اللاشعور الذى يعيش فيه الطفل حديث الولادة . قالوا إنه احتقان حاد فى المعدة والمخ ، وخشى الطبيب على هيلين من هذا المرض ، وكان من رأيه أنها لن تعيش ، ومع ذلك فلم يكد يطلع الفجر إلا وكانت الحمى قد فارقتها فجاءة بالشكل الخفى الذى وفدت عليها به ، وفرح كل أفراد الأسرة فرحاً عظيماً ، ولم يكن يخطر ببال أحد منهم ولا ببال الطبيب نفسه أنها لن ترى ولن تسمع شيئا أبداً !! .

وتحكى هيلين كيلر فى كتابها « قصة حياتى » عن تلك السنوات القليلة التى تلت إصابتها بذلك الداء اللعين وكيف مرت هذه السنوات الأولى من عمرها ، فتقول : « لست أذكر – بالتحديد – كل ما مر بى من أحداث فى الشهور الأولى التى أعقبت مرضى ، وكل ما أتذكره أنى كنت أجلس فى حجر أمى أو أتعلق بثوبها وهى تتنقل فى أرجاء البيت ، تؤدى ماعليها من أعمال المنزل ، وكنت لاأدع شيئاً إلا لمسته بيدى ولا حركة إلا أحسست بها وفطنت إليها ، فتوصلت بذلك إلى معرفة الأشياء . ولم ألبث أن شعرت بالحاجة إلى وسيلة للاتصال بالناس والتفاهم معهم ، فأخذت أشير بإرشارات غامضة : فهزة من رأسى تعنى (لا) وهزة أخرى معناها (نعم) وجذبة معناها (تعالى) ودفعة معناها (اذهبى) وإن كان ما أطلبه خبزاً حاكيت عملية قطعه بالسكين وحركة وضع الزبد عليه ، وإن أردت أن أطلب من أمى أن تصنع لنا (آيس كريم) مع الغذاء قلدت حركة الآلة التى تستعمل فى صنعها وارتجفت عدة مرات إشارة إلى

البرودة ، وزيادة على هذا استطاعت أمى أن تيسر لى فهم أشياء كثيرة ، فكنت أعرف دائماً كيف أحضر شيئاً معيناً ، وكذلك عوَّدتنى أن أذهب - وحدى - إلى أى مكان تحدده لى أو تكلفنى أن أمضى إليه . والحق أنى مدينة لحكمتها التى كلها حب وحنو بكل ماهو مشرق مضىء فى ليلى الداجى الطويل وبكل ماهو خير فيه ، وكنت أدرك الكثير مما حولى ، فتعلمت فى الخامسة من عمرى أن أطوى الغسيل عندما يأتى من المغسلة ، وأميز ملابسى الخاصة من غيرها من الملابس ، وكنت أستطيع التعرف على الزى الذى ترتديه أمى أو عمتى عندما تخرجان من المنزل ، وكنت أطلب منهما دائماً أن تصطحبانى معهما . هذا وكان أهلى يدعوننى كلما زارنا الضيوف لأشترك فى الترحيب بهم ، وإذا ما استأذنوا للانصراف حركت لهم يدى .

ولا أذكر متى أدركت أنى مختلفة عن سائر الناس ، ولكنى أذكر أن ذلك كان قبل أن تحضر معلمتى ، فقد لحظت أن أمى وأصدقائى لايستعملون أى إشارات عندما يريدون شيئا ما كما أفعل أنا ، بل يتكلمون بأفواهم بعضهم مع بعض ؛ ولذا كنت أقف أحياناً بين المتحادثين وألمس شفاههم ، وإذا لم أكن أفهم شيئاً مما يقولون كان يتولانى الغضب ويتملكنى الغيظ ، فأحرك شفتى وأعمل إشارات شتى وأقوم بحركات عصبية جنونية من غير جدوى ، مما كان يزيد فى غضبى أحيانا فأندفع وأركل ماحولى بقدمى ، وأظل أصيح حتى تخور قواى ، وكان لى فى تلك الأيام رفيقتان تلازماننى : مارتا واشنجطن وبل - أما مارتا فصبية صغيرة سوداء اللون وهى ابنة طاهيتنا : وأما

(بل) فكلبة صيد عجوز يقال إنها كانت ماهرة فى الصيد أيام شبابها . وكانت مارتا تدرك مقصدى من إشاراتى التى أوجهها إليها ، فلم أجد صعوبة فى جعلها تدرك ما أريد بوضوح لا لبس فيه ، على عكس (بل) التى عجزت أن أفهمها إشاراتى .

وفى الخامسة من عمرى انتقلنا من ذلك البيت الصغير المغطى بالكروم إلى آخر أكبر منه وأوسع رقعة ، وكانت أسرتنا آنذاك تتكون من أبى وأمى وأخوين غير شقيقين أكبر منى سناً ، ثم رزقنا الله بأختى الصغيرة ميلدرد . .

وقد عاش والدا هيلين فى حزن شديد وحيرة ، فماذا يفعلان فى ابنتهما ؟ وفى فكرة تعليمها بشكل خاص ، فقد كان بيتهم يبعد مسافة كبيرة عن أية مدرسة من مدارس المكفوفين وعن مدارس الصم والبكم ، ولم يكن المحتمل أن ترضى واحدة من المدرسات أن تأتى إلى بلد منعزل ناءٍ متطرف مثل تسكامبيا ، لتتولى تعليم ابنة صغيرة صماء وعمياء. على أن الشعاع الذى بعث الأمل والرجاء، كان حين قرأت أم هيلين كتاباً لتشارلس ديكنز [1] بعنوان « مذكرات أمريكية » وفيه يذكر أشياء عن فتاة تدعى لورا بريدجمن [2] وكيف تم تعليمها .

---

(١) تشارلس ديكنز كاتب إنجليزى شهير .

(٢) لورا بريدجمن ١٨٢٩ – ١٨٨٩ فتاة أمريكية عمياء صماء بكماء أصيبت على أثر حمى قرمزية أصابتها فى أواخر السنة الثانية من عمرها ، وتولى د . هاو تعليمها فى معهد بوسطن للعميان .

وعندما بلغت هيلين السادسة من عمرها بلغ والدَها أن فى مدينة بلتيمور طبيباً عظيماً من أطباء العيون وفّق فى كثير من الحالات التى استعصت على كثيرين من الأطباء فى عصره وكانت تبدو ميئوسا منها — فعقد والدا هيلين العزم على أن يبعثا بها إلى بلتيمور هذه ليريا إن كان من الميسور أن يقوم هذا الطبيب بشىء لإعادة بصرها . ولما وصلوا إلى بلتيمور استقبلهم د . تشزولم خير استقبال ، ولكنه لم يستطع أن يفيدهم بشىء عن إعادة بصر هيلين ، على أنه ذكر لأبيها أنه من الممكن أن تتعلم ، ونصح الطبيب بالرجوع فى ذلك إلى الدكتور « السكندر جراهام بل » فى واشنجطن ، فهو الذى يستطيع أن يفيدهم عن المعلمات والمدارس التى تُعنى بتعليم الأطفال الصم أو فاقدى البصر . ولما قابلوا الدكتور ( بل ) نصحهم بالاتصال بالسيد انجانوس مدير معهد بركنز فى مدينة بوسطن ؛ ليسألوه إن كان لديه معلمة تستطيع أن تتولى تعليم هيلين ، فبادر الوالد بالاتصال بالسيد أنجانوس ، ولم تمض بضعة أسابيع حتى وصله خطاب من الدكتور بل يبشره بأنه وجد المعلمة المنشودة ، وبالفعل حضرت المعلمة إلى منزل هيلين فى مارس ١٨٨٧ م ويعتبر يوم حضور المعلمة « آن منسفيلد صاليفان » أهم يوم فى حياة هيلين كيلر على الإطلاق ؛ فقد كان هذا اليوم محوراً لتحول هيلين من عالم الأموات — تقريباً — إلى عالم الأحياء ، وكان حضور الآنسة « آن » هو اليوم الثالث من شهر مارس ١٩٨٧ م وقبل أن تتم هيلين عامها السابع .

وحدث أن قدّمت الآنسة « آن » إلى هيلين هدية — فى اليوم

التالى لوصولها – وهى عبارة عن دمية مقدمة لها من أطفال معهد بركنز الصغار المكفوفى البصر ، وتهجّت لها الآنسة « آن صاليفان » كلمة دمية « dall » على يديها ، فاهتمت هيلين بلعب الأصابع هذا أى اهتمام ، وحاولت أن تحاكيه ، فلما أفلحت فى عمل الحروف بالدقة المطلوبة زُهيت زهو الأطفال وفرحت بشدة ، واندفعت تهبط السلالم لملاقاة والدتها ، وعملت على يديها الحروف التى تعبر عن كلمة دمية « dall » وكان ذلك من غير أن تدرى هيلين بوجود أشياء اسمها كلمات .

منذ ذلك اليوم بدأت هيلين تحاول التعرف على أسماء جميع الأشياء المحيطة بها . على أن هيلين بعد حصولها على مفتاح اللغة أصبحت تتوق إلى تعلُّم كيف تستفيد من هذا المفتاح ، فالأطفال الذين يسمعون يكتسبون اللغة من غير حاجة إلى بذل جهد خاص ، فهم يتصيدون الألفاظ التى تصدر من شفاه الناس فى سرور ولذة ، يتصيدونها وهى طائرة إن صح هذا التعبير . أما الطفلة الصماء فلا مفر لها من أن تلتقط هذه الألفاظ بطريقة وئيدة كثيراً ما تكون شاقة مؤلمة لها . ظلت هيلين فى محاولتها هذه عدة سنوات على هذا المنوال ؛ وذلك لأن الطفل الأصم لايتعلم فى يوم ولا فى شهر ولا فى سنتين أو ثلاث ؛ فالأمر بلاشك فى غاية المشقة بالنسبة للطفل الأصم وللمعلم على حد سواء .

بعد أن عرفت هيلين بعض الكلمات بدأت معلمتها تعطيها بعض قصاصات الورق المقوى مطبوع عليها كلمات بنظام الطبع البارز

(برل) وسرعان ما أدركت هيلين أن كل كلمة مطبوعة تدل على شيء أو على فعل أو صفة .

وتعتبر زيارة هيلين كيلر لمعهد بركنز للعميان بمدينة بوسطن فى مايو ١٨٨٨ م هى أهم حادث فى حياة هيلين كيلر على الإطلاق ، فما إن وصلت هيلين إلى معهد بركنز حتى أخذت تصادق الأطفال الصغار فاقدى البصر ، وقد سرَّت بهم كثيراً حين تأكدت من معرفتهم بطريقة (الألف باء) اليدوية ، إذْ وجدت فى ذلك فرصة لها لمخاطبة الآخرين بطريقتها الخاصة .

وأخيراً وجدت هيلين نفسها بين من يماثلونها ، وكذلك وجدت الطريقة الملائمة بالنسبة لها للتحاور مع الغير ، فكان ذلك دافعاً لها على تعلّم الطريقة التى تربط البشر جميعا بعضهم ببعض ، وسيلة التحاور المعتادة ؛ الكلام .

سعت هيلين لتعلّم الكلام ولاقت فى سبيل ذلك العنت والمشقة . تحكى لنا هيلين لتبين لنا كيف تعلمت الكلام فتقول فى كتابها « قصة حياتى » : « بدأت أتعلم الكلام فى ربيع سنة ١٨٩٠ م فقد كانت النزعة إلى النطق بألفاظ مسموعة نزعة قوية عارمة فى نفسى ، وكنت أسرُّ من كل شيء يحدث أصواتاً وضوضاء ، وكذلك فقد كنت دائماً أحاول أن أصدر أصواتاً وأضع إحدى يدى على حلقى وأحس بالأخرى حركات شفتى .

وقبل أن أفقد بصرى وسمعى قد كنت بسبيل تعلّم الكلام بسرعة ، أما بعد مرضى فقد توقفت عن الكلام ؛ إذ أنى لم أعد

أسمع ، وكان من عاداتى أن أجلس فى حجر أمى طوال النهار ، أضع يدى على وجهها ، فقد كنت أشعر بالسرور كلما وضعت يدى على شفتيها ، ثم أحرك شفتى مثلها ، وإن كنت قد نسيت معنى أن يتكلم الإنسان . ويقول لى أصدقائى إنى كنت أضحك وأصيح بفطرتى ، وقد مرت بى فترة كنت أصدر فيها أصواتاً كثيرة وأنطق ببعض مقاطع من الكلمات ، لامن حيث هى وسائل للتفاهم مع الناس والاتصال بهم ، ولكن لأن شعورى بالحاجة إلى تدريب أعضائى الصوتية كان قوياً ، وحاجتى إليه ماسة كل المساس ومع ذلك فثمة كلمة واحدة مازلت أذكر معناه جيداً وهى كلمة ماء « water » على أن هذه صارت هى الأخرى وبعد قليل غير مفهومة إلى أن جاءت الآنسة « صاليڤان » وأخذت تعلمنى ، وكنت أعرف منذ زمن طويل أن لدى الناس الذين حولى طريقة يتفاهمون بها ويتصلون بعضهم مع بعض ، وهذه الطريقة تخالف الطريقة التى أتبعها ، وحتى قبل أن أعرف أن فى مقدور الطفل الأصم أن يتعلم الكلام كنت شاعرة بعدم رضائى عما لدى من وسائل للاتصال بالناس والتفهم معهم ، فمن كان اعتماده على (الألف باء) اليدوية يحس دائماً بالضيق والتقييد المفروضين عليه ، وهو إحساس يستثير فىّ شعوراً بالضيق ، وكثيراً ماكانت تثور أفكارى وتظل تخفق وتضطرب فى عقلى كما تفعل الطير أمام الريح ، ولكنى تشبثت باستعمال شفتىّ وصوتى ، على أن أصدقائى لم يتركونى أسير فى هذا الطريق ، وحاولوا أن يثنونى عن عزمى هذا ، خشية أن يؤدى بى إلى الشعور بالخيبة والفشل ، مما قد يكون له أثر سيىء فى نفسى ، فثابرت وتمسكت بما عقدت عليه

عزمى – إلى أن حدث ما أدى إلى التغلب على هذا الحاجز العظيم ، فقد سمعت قصة « رانهلت كاتا » وهى فتاة نرويجية صماء عمياء تعلمت الكلام فعلا ، ولم يهنأ لى بال حتى أخذتنى معلمتى لاستشارة الآنسة « سارة فولر » مديرة مدرسة هوارس مان التى رضيت أن تقوم بنفسها بشئون تعليمى الكلام . وبدأنا دروسنا من ٢٦ من مارس سنة ١٨٩٠ م وقد سارت الآنسة فولر معى على الطريقة الآتية : كانت تمرر يدى فى رفق ولين على وجهها وتجعلنى أشعر بموقع لسانها وشفتيها وهى تلفظ صوتاً ما ، وقد كنت متلهفة كل التلهف على محاكاة كل حركة من حركاتها ؛ إذْ حفظت فى ساعة واحدة ستة حروف هى : « م ، ب ، أ ، س ، ت ، ى » ولم تزد الدروس التى تلقيتها على يد الآنسة فولر على أحد عشر درساً.ولست أنسى ماشعرت به من دهشة وغبطة عندما نطقت أول جملة موصولة ، وكانت « الجو حار » نعم إنها كانت مقاطع مبعثرة غير منتظمة ، ولكنها كانت كلاماً إنسانياً ، لكن لايتوهم أحد أنى أصبحت بذلك أستطيع أن أتكلم فعلاً فى مثل هذا الوقت القصير ؛ فلم أكن تعلمت سوى مبادئ الكلام ، ولم يكن يستطيع أن يفهمنى سوى الآنستين « صاليفان » و« فولر » ..

وهكذا وضعت هيلين كيلر قدميها على أول الطريق ، وظلت تسير فيه حتى أصبحت متكلمة – بعد ذلك – وكما يفعل بقية الناس .

انفتح الطريق أمام هيلين لتعلّم اللغات فبدأت قبل أن يحل شهر

اكتوبر من عام ١٨٩٣ م فدرست عدة علوم وموضوعات شتى بطريقة غير منتظمة ، فقرأت تواريخ اليونان والرومان ، وكذلك بدأت تدرس كتاب قواعد اللغة الفرنسية ، وكان هذا الكتاب مطبوعاً بنظام الحروف البارزة ، وأيضا بدأت فى تعلم اللغة اللاتينية من المستر « أيرنز » وكان رجلاً ذا طبع حلو نادر وخبرة واسعة ساعدها فى تعلّم اللاتينية وكذلك الحساب ، واشتركت معه الآنسة « صاليفان » حيث كانت تتهجى لها كل كلمة يقولها المستر « أيرنز » .

فى أكتوبر من عام ١٨٩٤ م التحقت هيلين كيلر بمدرسة « رايت هاماسون » لتعليم الصم ، وفيها تدربت بشكل صحيح على قراءة الشفاه ، ودرست كذلك فى تلك الفترة التى استمرت عامين — الحساب والجغرافيا الطبيعية واللغتين : الألمانية التى أتقنتها جيدا ، والفرنسية . وأصرت هيلين بعد ذلك على الالتحاق بالتعليم النظامى ، فالتحقت بمدرسة كمبريدج للفتيات فى أكتوبر من ١٨٩٦ م استعداداً لدخول كلية « رادكليف » فيمابعد . ونبع هذا التفكير حينما زارت هيلين فى صغرها كلية « ولزلى » وفاجأت أصدقاءها بإعلان عزمها على الالتحاق بالكلية فى يوم من الأيام ، وزيادة على ذلك فقد أكدت لهم أنها ستذهب إلى « هارفارد » بنفسها ، ولما سألوها : ولماذا لاتذهب إلى كلية « ولزلى » أجابتهم : « لأنها لا تقبل سوى الفتيات » وقد رسخت فكرة الالتحاق بالكلية فى نفس هيلين ، وأضحت رغبة ملحة تحفزها على النزول إلى الميدان لمنافسة الفتيات المبصرات والحصول على درجة من الدرجات الجامعية ،

وذلك على الرغم مما لقيته من معارضة قوية أبداها كثيرون من أصدقائها .

وسبب اختيار هيلين لكمبريدج أنها أقرب المعاهد إلى « هارفارد » وإلى تحقيق ما أعلنته لأصدقائها من عزم ، وكان من المفروض أن تحضر الآنسة صاليفان الدروس مع هيلين فى مدرسة كمبريدج ؛ لتترجم لها مايلقى عليها من محاضرات ؛ حيث لم يكن لدى أساتذة كمبريدج أية خبرة فى تعليم التلميذات غير العاديات ولم يكن لدى أىٍّ منهم أى وسيلة للاتصال مع هيلين سوى أن تقرأ هيلين شفاههم ، وكانت المواد المقررة على هيلين فى سنتها الأولى بالمدرسة هى « تاريخ إنجلترا والأدب الإنجليزى ، واللغتين الألمانية واللاتينية ، والإنشاء اللاتينى ، والحساب ، وبضع مواد اختيارية أخرى » .

ومع أن هيلين لم تكن قد تلقت قبل ذلك مقرراً نظامياً بقصد إعدادها لدخول المدرسة إلا أن الآنسة صاليفان كانت قد دربتها خير تدريب فى اللغة الإنجليزية ، فتبين لأساتذتها أنها ليست فى حاجة إلى تدريب خاص فى هذه المادة ، وإنما كان ماتحتاج إليه هو دراسة نقدية للكتب المقررة عليها . وإلى جانب اللغة الإنجليزية حصّلت هيلين كيلر شيئاً غير قليل من اللغة الفرنسية ، وقضت ستة أشهر فى دراسة اللغة اللاتينية ، أما اللغة الألمانية فكانت المادة المحببة إلى نفسها ، وكان علمها بها أكثر من علمها بغيرها .

وعلى الرغم من هذه الميزات ، فقد كانت هناك بعض عقبات فى طريق تقدمها فى الدراسة ، فلم يكن فى طاقة الآنسة « صاليفان »

معلمة هيلين ان تتهجى لها فى يدها كل ماتتطلبه منها الكتب المقررة ، وكان من العسير أن تطبع جميع المقررات الدراسية اللازمة بالحروف البارزة فى الوقت الملائم حتى يتيسر لهيلين الإفادة منها ، وبعد كبير مجاهدة استطاعت هيلين أن تتخرج من مدرسة كمبريدج ، وتلتحق بكلية « رادكليف » ؛ لتحصل على درجة الليسانس .

وتحكى لنا هيلين كيلر بعض لمحات من حياتها فى « رادكليف » تقول : « تكلل جهادى فى سبيل الالتحاق بالكلية بالنجاح ، وصار لى الحق فى دخول كلية « رادكليف » متى شئت ، ومع ذلك فقبل أن أدخل الكلية رُئى أن الأولى بى أن أدرس سنة أخرى على يد المستر « كايث » ولهذا لم يتحقق حلمى ولم ألتحق بالكلية إلا فى خريف ١٩٠٠ م وإنى لأذكر أول يوم لى فى « رادكليف » حق الذكر ؛ فقد كان يوماً حافلاً بالكثير مما يهمنى ، وكنت أتوق إليه وأتطلع إلى تحقيقه من سنوات عدة ؛ فإن قوة عظيمة فى نفسى – أعظم من رجاءات أصدقائى وقدراتهم على الإقناع وأقوى من نوازع قلبى نفسه – كانت تدفعنى إلى أن أجرب قوتى بحسب معايير غيرى ممن يرون ويسمعون ، وكنت أعرف أن الطريق سوف لايخلو من عقبات ، ولكنى كنت تَوَّاقة إلى التغلب عليها ، فقد تشبعت من قبل بقول الرومانى الحكيم : « ليس النفى عن رومية سوى أنك تعيش خارج رومية » وإذا كانت الطريق العامة الكبرى التى تؤدى إلى العلم مؤصدة فى وجهى فانى مضطرة أن أسلك طرقاً أخرى طويلة وملتوية – هذا كل مافى الأمر ؛ ذلك إلى أنى كنت أعرف أن فى الكلية طرقاً شتى تيسر لى أن أتصل بالفتيات اللواتى يفكرن ويحببن

ويجاهدن مثلما أفكر وأحب وأجاهد ، وأقبلت على الدراسة بجد وتلهف ، فرأيت عالماً جديداً ينفتح أمامى ؛ عالما كله نور وجمال ، وشعرت بأن فى نفسى قدرة على معرفة الأشياء جميعها . فإنى أستطيع أن أكون حرة فى دنيا العقل العجيبة ، حرية أى إنسان آخر ؛ فأهلها ومناظرها ، وآدابها ومسراتها ومآسيها ينبغى أن تكون كلها حيّة ملموسة ، تترجم عن عالم الحقيقة وتعبر عنه ، وبدت لى قاعات المحاضرات حافلة بأرواح العظماء والحكماء ، وخيل لى أن الأساتذة هم الحكمة نفسها مجسمة . وسرعان ما اكتشفت أن الكلية ليست ذلك المكان الرومانسى الجميل ، فإن الكثير من الأحلام والرؤى التى كانت تبهج غُرَّتى وتضيء عدم خبرتى فى صغرى ، ظلت تضعف شيئاً فشيئا وتتضاءل حتى حال لونها وتغير ، ودخلت فى ضوء الأيام العادية المألوفة ، وتدريجياً أدركت أن الالتحاق بالجامعة ليس خيراً كله ؛ فهو لا يخلو من متاعب ومن عيوب ....

فى « رادكليف » عانت هيلين كيلر الكثير والكثير من المشكلات ، وعلى رأسها مشكلة عدم توفر الكتب المكتوبة بطريقة ( برل ) وضيق الوقت ، وغيرهما كثير .. وعلى الرغم من ذلك استطاعت هيلين الحصول على درجة الليسانس من « رادكليف » ؛ لتحقق حلم حياتها فى أن تتعامل مع المجتمع كفرد عادى يستطيع الحصول على نفس الدرجات العلمية التى يحصل عليها المبصرون .

على أن جهد هيلين لم يتوقف على الدراسة فقط بل كانت لها عدة مؤلفات منها :

The world weli vein.

The praclice of oplimism.

Out of the Dark.

lel us have paith.

My Religion.

بعد استعراضنا لحياة هيلين كيلر - معجزة القرن العشرين - فى شكل مختصر لايمكن لنا إلا أن نسجل إعجابنا بتلك الفتاة التى استطاعت بإرادتها التى لاتعرف المستحيل أن تنتقل من عزلة تامة عن الناس والمجتمع إلى الانغماس التام فى حياة الناس والمساهمة الفعالة فى حركة المجتمع .

إن هيلين كيلر كانت نموذجاً ربما لن يتكرر ، لكنه نموذج سوف يبقى أبد الدهر دالاً على أن إرادة الإنسان هى العامل الأساسى فى تحديد مستقبله .



الشــاعر الفيلســوف
أبو العلاء المعرى

# الشاعر الفيلسوف

## أبو العلا المعرى

« لقد كان أبو العلاء المعرى شاعراً فى فلسفته وفيلسوفا فى شعره . قد جمَّل الفلسفة بما أسبغ عليها من الفن ، ومنح الشعر وقاراً ورزانةً بما أشاع فيه من الفلسفة . وهو من هذه الناحية فذٌّ فى أدبنا العربى » .

د . طه حسين

تميَّز أبو العلاء المعرى فى الأدب العربى بلقبه الشهير « رهين المحبسين » وكذلك تميَّز بالنزعة العقلية الظاهرة فى كل جنبات شعره ؛ فقد كان المعرى يعتبر عقله هو المحك الذى يستطيع بعد عرض جميع المعتقدات والآراء عليه أن يميِّز الجوهر من العرض ، وهو القسطاس الدقيق الذى يزن به الأمور ؛ ليحدد قيمتها ، وهو العين البصيرة الثاقبة التى يحاول أن يكتنه بها أسرار الوجود حين تكلُّ البصائر وتتراخى وتستسلم . ولم يكن المعرى – فى ذلك – منطلقا من عقل أخرق ، ولكن كان للمعرى عقل جبار ، حُرٌّ ، عفّ ، يفكر ويقرر ، ويحلل ويستنتج ، يجيعه شكُّه فلا يغتذى إلّا بما ينتج ويصنع . هذا العقل احتضنته نفس تعالت عن صغائر العيش ،

احتقرت شهوات البدن ، فمضى يحارب بإشراقه وطهره سفاسف الفكر ، ويداوى العقول المتخلفة التى يشيخ أصحابها وتظل هى رضيعة لاتنمو أبداً . كان كل ما أراده أبو العلاء فى حياته أن يحرر عقول الآخرين من الاتِّباع الأعمى ، والجمود الأصم ، وأن يكون الإنسان مالكاً لزمام تفكيره ، مدركاً لحقيقة مايقول وما يعمل ، لا أن يكون عقله فى أذنيه .

وأبو العلاء المعرى هو أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخى ، فهو عربى النسب ، وقبيلته إحدى قبائل اليمن ، ولد فى معرة النعمان بين حماة وحلب ، فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلثمائة للهجرة ، وكان عالماً بارزاً ، وجده كان قاضياً معروفاً .

عاش أبو العلاء فى بلدته طبيعياً يمتلك كل حواسه ، حتى أُصيب بالجدرى وهو فى الرابعة من عمره . فكفَّت عينه اليسرى ، وابيضت عينه اليمنى ، وظلَّ ضريراً لايرى من الألوان إلَّا الحمرة ؛ إذ كانت آخر لون رآه . ولم يكن كفُّ بصره مانعاً له يمنعه عن طلب العلم ، فتلقى على أبيه مبادئ علوم اللسان العربى ، ثم تتلمذ على بعض علماء بلدته ، وكان حاد الذكاء قوى الذاكرة ، يحفظ كل مايسمع من مرة واحدة . ولمَّا بلغ أبو العلاء العشرين من عمره اعتكف فى بيته مكباً على درس اللغة والأدب حتى أدرك من دقائق التعبير وخواص التركيب ما لامطمع بعده للغوى أو أديب ، وكان قد بدأ يقرض الشعر وهو فى سن الحادية عشرة .

وفى سنة ٣٩٢ هـ غادر قريته قاصداً بلاد الشام . فزار مكتبة طرابلس التى كانت فى حوزة آل عامر ، وانقطع إليها فترة طويلة ، فانتفع بما فيها من أسفار جمّة ، ثم زار اللاذقية ومر على ديرها ، وأقام فترة بين رهبانه ، فدرس عليهم اصول المسيحية واليهودية ، وناقشهم فى شتى شئون الأديان ، وعندئذٍ بدأ الشك يتسرب إليه ، وبدا كما لو كان ألحد . وقصد بعد ذلك بغداد ، وهى حينئذٍ مستقر العلم وبيت العلماء ، فاحتفى البغداديون به وأقبلوا عليه ، فأقام بينهم فترة طويلة يدرس مع علمائهم الأحرار الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية ، ويعرض آراءه ويذيع أفكاره على جمع من التلاميذ لازموه وتشيعوا له ، وظل ببغداد إلى أن بلغه نبأ وفاة أمه التى كان يحبُّها ، فحزن عليها حزناً شديداً ، وأحسَّ بالسخط على الحياة والناس ، ونظر إلى العالم نظرة سخط ومقت وازدراء ، ورأى من الخير له أن يعتزل الناس ، فعاد إلى بلدته سنة ٤٠٠ هـ . واحتجز نفسه فى داره ، فسمى رهين المحبسين : العمى والمنزل . وظل معتزلاً الناس ماعدا تلاميذه ، دائباً على البحث والتعليم والكتابة ، فأخرج مجموعة ضخمة من التواليف ضاع أكثرها .

وكان أبو العلاء المعرى زاهداً فى ملذات الحياة فظل ، خمساً وأربعين سنة لايأكل الحيوان ولا ما يُنتج من لبن وبيض ، قانعاً من الطعام بالعدس ، ومن الحلوى بالتين ، ومن المال بثلاثين ديناراً فى العام كانت تأتيه من عقار له .

ولعل تميُّز أبى العلاء المعرى كان يكمن فى تلك التركيبة النفسية

التى تميَّز بها على معاصريه من الشعراء ، فلم يكن كشعراء عصره يرتزق من قرض الشعر ، مع أن الشعر فى عصره كان وسيلة رابحة للرزق ، ولم يكن كذلك يتشبه بمعاصريه ممن كُفَّ بصرهم فى التمسح بذوى النفوس والسلطان يمدحونهم لنيل القربى منهم ولنتأكد من ذلك نجد أن شعر أبى العلاء - على وجه التقريب - خاليا من شعر المديح ، سوى بغض المدائح التى قيلت فيمن رأى أبو العلاء استحقاقهم للمدح .

ويُعدّ كفّ بصر أبى العلاء حجر الزاوية فى كل فكر قال به ، حيث كان كفّ بصره محركا لنوازعه الداخلية التى تدعوه لاجتناب الناس ، وكذلك الضيق بالحياة ، وتعجل الموت ، والزهد فى كل المتع والملذات ، وكذلك كان كفّ بصره محركاً قوياً لقدرات أبى العلاء المعرى ؛ لكى يتفوق على أقرانه فى عصره من المبصرين والمكفوفين على حدٍّ سواء . فقد تفوق أبو العلاء المعرى فى اللغة حتى قيل : إن أحداً لم يملك أمر اللغة العربية كما ملكه أبو العلاء ، ولم يفرغ أحد للغة العربية كما فرغ لها أبو العلاء ، ولم يتحكم أحد فى ألفاظ اللغة العربية كما تحكّم فيها أبو العلاء . أنفق صباه وشبابه فى الدرس والتحصيل والمشاركة فى الحياة الأدبية على نحو ما كان يفعل المثقفون فى عصره ، ثم كانت المحنة واضطر إلى العزلة ولزم داره ، وأصبح رهين المحبسين أو رهين المحابس الثلاثة : رهين داره ، ورهين جسمه ، ورهين هذه الآفة التى حالت بينه وبين النظر إلى الطبيعة ومايضطرب فيها من الكائنات وهو يقول فى ذلك :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ، ولزوم بيتى ، وكون النفس فى الجسد الخبيث

وعكف أبو العلاء على نفسه ونظر فيها ، فماذا وجد ؟ وجد معانيَ لاتكاد تُحصى قد حصلها أثناء الدرس ومازال يحصلها بعد العزلة ، ووجد ألفاظا قد اجتمعت له من درسه اللغوى ، وكان حظه من هذه الثروة اللفظية عظيماً ، ثم نظر فإذا هو مضطر إلى أن ينفق حياته بين هذه المعانى وهذه الألفاظ لايستطيع أن يفلت منها ولا أن يخلص من إلحاحها عليه . إذا نظر فى المعانى اضطربت آراؤه وثارت فى نفسه العواطف المتناقضة والأهواء المتضاربة ، وإذا نظر فى الألفاظ أخذه الإعجاب بكثرة ماوعى منها . فهو إذن مضطر إلى أن يقاوم هذه المعانى ، وإلى أن يقاوم هذه الألفاظ ، وإلى أن يحول بين أن تتحكم فيه ، وسبيله إلى ذلك أن يتحكم فيها هو ، وأن ينفق حياته مزاوجاً بين تلك المعانى وهذه الألفاظ ، وكذلك فعل . فنحن لانراه إلّا عابثا بالمعانى وعابثا بالألفاظ يلائم بين المعنى والمعنى ، ويخالف بين المعنى والمعنى ، كما يلائم ويخالف بين الألفاظ ، وكما يلائم ويخالف بين الألفاظ والمعانى . ونحن إذ نقرأ ما بقى لنا من آثار أبى العلاء لا نكاد ندفع عن أنفسنا الشعور بأن هذا الرجل قد خلى بينه وبين المعانى والألفاظ ، فهو يلعب بها ويتلهى بهذا اللعب ؛ لأنه لايجد شياً آخر ينفق فيه جهده . وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم هذه الخطة التى فرضها أبو العلاء على نفسه فى « اللزوميات » فأخذ نفسه بالتزام مالا يلزم فى القافية ، كما أخذ نفسه بالتزام مالا يلزم فى النظم على جميع

حروف المعجم ، وكذلك فعل فى النثر فكان يلتزم سجعا فى كثير منه .

إذن فنحن امام عبقرية لغوية معوقة ، أصرت أن تحتل مكان الصدارة وأن تتحدى كل المبصرين ، فوسعت كل مايمكن أن تسعه عقلية للغة من اللغات .

وليس لنا أن نقصر عبقرية أبى العلاء على المجال اللغوى فحسب ، بل إنها عبقرية لها فلسفتها الخاصة ، وليس هناك من يمكن أن ينكر أو يجادل فى كون أبى العلاء فيلسوفا ؛ فقد أفنى أبو العلاء عمره بحثاً عن الحق ، ولعله بذل فى ذلك من الجهد الشخصى الممتاز مالم يبذله الكثير من الفلاسفة الذين لايجادل أحد فى اضافة الفلسفة إليهم ، على ان أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً مقلداً ، أو فلنقل إنه لم يكن منتمياً إلى مذهب فلسفى بعينه من مذاهب الفلاسفة ، يؤمن بأصوله المقررة ويضيف إليها مايستكشفه بعد البحث والاجتهاد ، وإنما كان مفكراً بأوسع معنى لهذه الكلمة ، يتعمق فى التفكير فى كل مايعرض له من المسائل ، وكان مستعرضاً لكل المذاهب الفلسفية التى عرفها المسلمون فى عصره ، يُلمُّ بها جميعاً ، فيأخذ منها ثم يدع ما أخذ ويأخذ ماترك ، حتى كانت حياته كلها — وخصوصاً بعد العزلة — تفكيراً متصلاً ونقداً مستمراً ، وتنقلاً بين الآراء والمذاهب الفلسفية واستكشافا لأشياء لعل القدماء لم يسبقوه إليها . وعلى ذلك فنحن نستطيع أن نقول : إنه فيلسوف شمل كل أفكار سابقيه ، فأخذ من كل فريق منهم مايرضيه ويلائمه . ولعل أغرب مانجده عند أبى العلاء

هو أنه على كثرة تنقله بين مذاهب الفلسفة التى عرفتها الأمم المتحضرة كلها وعلى كثرة مانجد فى آرائه من التناقض والاضطراب - على الرغم من ذلك - قد رسم لنفسه خطة عملية لم تتغير ، وفرض على نفسه سيرة لم ينلها أى قدر من الاضطراب أو التغيير ، وإنما لزمها منذ عاد من بغداد إلى أن فارق الدنيا ، لم ينحرف عنها يوماً أو بعض يوم ، فعلى حين اضطربت حياته العقلية أشد الاضطراب هدأت حياته العملية أشد الهدوء ، وكان هذا التناقض بين الحياة العملية الهادئة الراكدة والحياة العقلية الثائرة الجامحة ، مظهر شذوذ أبى العلاء ثم مظهر نبوغه وتفوقه وامتيازه على كل من أنتجت الحياة العقلية الإسلامية من الفلاسفة والشعراء ؛ ذلك أنه لم يكن فيلسوفا فحسب ، ولو كان شاعراً ليس غير لاضطربت حياته العلمية كما اضطربت حياته العقلية ، ولكنه جمع بين الخصلتين : جمع إلى التفوق العقلى والذى هداه إلى غرور الحياة ، وأقنعه بالهدوء والعزلة والتخفف من الأثقال - جمع إليه - التفوق الفنى الذى دعاه إلى التفكير فى كل شيء ، والنقد لكل شيء ، والتعبير عن كل ماتصوره فى صورة فنية رائعة ، كما كان الناس يتصورون الروعة فى ذلك الوقت .

وعلى ذلك فمن قال إن أبا العلاء شاعر لم يخطئ الحق ، فشاعريه أبى العلاء لا شك فيها ، ولعلها فى بعض النواحى قصرت عن شاعرية أبى تمام وأصحابه من المبصرين ، ولكنها قد تفوقت من بعض النواحى على شاعرية هؤلاء المبصرين ؛ لأنها تعمقت من الحقائق مالم يتعمقوا ، وسمت من الحكمة مالم يسموا إليه . ومن قال إن أبا العلاء فيلسوف

لم يخطىءالحق أيضاً ؛ فقد شارك الرجل الفلاسفة فى فلسفتهم ، ولعله قد قصر عما وصل إليه الفارابى أو ابن سينا من تعمق لبعض النظريات ومن إقامة المذاهب المنسقة المنتظمة المطردة التى لا يفسدها الاضطراب والاختلاف ، ولكنه تفوق على هؤلاء الفلاسفة ؛ لأنه استنزل الفلسفة من برجها العالى وأحياها فى البيئة التى يعيش فيها الناس وجعلها إنسانية لا تبلغ العقول وحدها ، ولكنها تبلغ القلوب أيضاً ، فتشيع فيها الحب والرحمة والحنان كما تشيع فيها السخط والثورة والغضب ، ولكنه سخط لا ينتهى إلى الحقد ، وغضب لا ينتهى إلى إفساد ما بين الناس من الصلات .. وفى المجمل فأبو العلاء شاعر فى فلسفته وفيلسوف فى شعره . قد جَمَّلَ الفلسفة بما أسبغ عليها من الفن ، ومنح الشعر وقاراً ورزانة بما إشاع فيه من الفن . وهو من هذه الناحية فذٌّ فى أدبنا العربى .ولعل أبرز مؤلفات أبى العلاء المعرى هى :

ديوان سقط الزند – ديوان اللزوميات – رسالة الغفران – الدرعيات – كتاب الفصول والغايات – الأيك والغصون – شرح ديوان المتنبى – شرح ديوان البحترى – شرح ديوان أبى تمام .. وغيرها كثير فُقد أثناء الحروب الصليبية .

وقد توفى أبو العلاء بداره بالمعرة فى يوم ١٣ من ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ الثانى والعشرين من مايو سنة ١٠٥٧ م بعد أن عمّر زهاء ستة وثمانين عاماً ، وكانت وفاة أبى العلاء حادثاً جللاً تردد صداه فى أرجاء الشام وأرجاء العالم الإسلامى كله ، وحفلت المعرة على أثر

موته بجمهرة عظيمة من الشعراء والأدباء جاءوا ليزوروا قبر الشاعر الفيلسوف ، وليشيدوا بذكره . وقد أوصى أبو العلاء أن يُكتب على قبره :

هــذا جنــاه أبــى علــىَّ     وماجــنيت علــى أحــد

## قالــوا عن أبى العلاء

وقد كان أبو العلاء المعرى الشاعر الفيلسوف محط أنظار الكثير من الكتّاب والأدباء فى عصره وبعد عصره وحتى اليوم . ومن أولئك الذين سجّلوا لنا آراءهم – من أدباء العصر الحديث – فى أبى العلاء ، الأستاذ/ أحمد أمين ، حين تحدث عن « نظرة ابى العلاء إلى العالم » يقول : « كان أبو العلاء فيلسوفاً متشائما » يرى أن الدنيا لاتستحق البقاء لحظة ، فليت العالم الإنسانى ينقرض فى لمحة :

وليت وليداً مات ساعة وضعه     ولم يرتضع من أمه النفساء

وإن كان ولابد فليت الناس لايتزوجون ولاينسلون ، فيكون عمر الدنيا جيلاً واحداً وأمداً قريباً لناس كلهم كذب ورياء وظلم :

وأفضــل مــن أفضلــهم صخـــرة
لاتظلــم النــاس ولاتكــذب

فماذا يكون لهم الحق فى البقاء ؟

بل ليس الإنسان وحده هو الشر فى هذا العالم ، فكل مافيه شر ، وشر مافيه الإنسان .

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
وكل حى فوقها ظالم ومابها أظلم من ناسها

ولايظن ظان أن العالم كان يوماً ما براً أو صالحاً ففسد ، بل كان هذا دأبه منذ خلق ، وطبيعته منذ وجد فما فسد الناس ، ولكن اطرد القياس :

وهكذا كان أهل الأرض مذفطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

فأبو العلاء لايقول كما قال غيره : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » ، **بل يقول العكس : « ليس فى الإمكان أسوأ مما كان »** .

كان هذا النظر المتشائم عند أبى العلاء نتيجة لمزاجه ونوع تفكيره أكثر مما هو نتيجة لظروفه الخارجية .

وعنه يقول الأستاذ/ميخائيل نعيمة :

« عشرة قرون . إن دقائق عشراً لفسحة من الزمان كافية لمحو عالم وخلق عالم ، كيف بقرون عشرة ؟ وكيف برجل تمر به هذه القرون بمدها وجزرها ، فتجرف الكثير من الذين سبقوه والذين عاصروه والذين جاءوا بعده ، ولاتقوى على جرفه ، بل تحمله كمطية مطواع من فجر عام إلى فجر عام جديد ، ومن قلب جيل إلى قبل جيل ، وهكذا يلف هذا الرجل الزمان ولايلفه الزمان ، ويطوى المكان ولايطويه المكان . هو الرجل الذى كان من أشد الناس تبرماً بالزمان والمكان ، ونقمة على حياة كان يحسبها جناية وإثماً ؛ لأنها فى اعتقاده

أضيق من المكان وأقصر من الزمان . لها أول فيه بعض الحلاوة ، ولها آخر كله مرارة ، ومرارة آخرها تمحو حلاوة أولها .

وقال د . عبد الوهاب عزام مقارناً بين أبى العلاء والخيام : « عظيمان من علماء الإسلام وأدبائه ، عاش أولهما بين سنتى ٣٦٣ و ٤٤٩ من الهجرة ، وعاش الثانى فى القرن الخامس وأوائل القرن السادس لايُعرف يقيناً تاريخ مولده ووفاته ، وإن يكن أدرك زمان المعرى مما أدرك منه إلّا سنين قلائل . بعض الأدباء يذكرون الخيام مع المعرى ويكثرون من تشبيه أحد الرجلين بالآخر ، فهل هم فى ذلك على هدى ؟ ماذا عسى أن يتبين الباحث من تشابه بين عالم فارسى غلُبت عليه الفلسفة النظرية ، والرياضية ، وأديب عربى غلبت عليه الفلسفة العملية والشعر وعلوم الأدب ؟ ماذا يجد من قرب بين بصير رأى ألوان الحياة وسرح طرفه فى أرجائها وأمتع نفسه بمشاهدها ، وسرَّى همومه بمرائيهما ورأى فيها مضطربا واسعاً ، وبين آخر كفيف لاتنطلق نفسه فى نظراته ، ولايهتدى السبل فى مناكب الأرض لزم داره وتسمى رهين المحبسين .

إن مسافة الخلف بين المعرى والخيام واسعة : فالأول رواقى المذهب ، والثانى أبيقورى النزعة . ولكنهما فى التشاؤم من الحياة والزراية بها والرثاء لحال الإنسانية سواء .

وعنه قال الأستاذ جبران خليل جبران : « كان أعمى بين مبصرين ومبصراً بين عميان . وقد قادته هذه الحالة إلى الوحدة ، فالتشويش ، فالكآبة ، فالشك ، فالتمرد . نظر إلى الحياة بعينه المعنوية فرأى

الخرافات فتوهمها ديناً ، وأبصر الموت فظنه فناءً ، وصدّق بالقضاء فتخيله رباً ، فانتصب بين أشباح أفكاره يجدف على اسم الحياة فى جيل مستسلم إلى مشيئة الأيام والليالى ، واستسلام العناصر غير العاقلة إلى قوة الاستمرار . كان شاعراً متمرداً ولم يكن فيلسوفا ؛ فالفيلسوف يجرد الوجود من ظواهره فيبدو له عارياً مطلقاً ، أما الشاعر فيراه سائراً فى حقل من الأوزان الرنانة والمعانى المبتكرة فالمعرى لم يُوجد فلسفة مطلقة ، لكنه أوجد شعراً مطلقا » .

وعنه قال د . زكى مبارك : « إنى أرى أبا العلاء المعرى لم يكن يكره الدنيا أبداً ، ولم يكن يوم اعتزل دنياه إلّا حيواناً مفترساً نزع الدهر ماكان يملك من أظفار وأنياب . ولو كان أبو العلاء كره دنياه لاكتفى منها بأيسر العيش ، ولكنه عاش عمراً طويلاً جداً ، وطول العمر يشهد بقوة الأواصر بين المحب والمحبوب ، فالقتال بين أبى العلاء وبين دنياه كان قتالاً بين عاشقين يظهران البغض والحقد ويضمران العطف والحنان . والناس متفقون على أن أبا العلاء قد طلّق دنياه فلم يظفر بما فى حواشيها من نعيم ومتع ، ولكنى بعد التأمل عرفت انه زهد فى جميع الاشياء إلا المجد ، المجد هو أشهى الاطايب فى دنيا الرجال ، فإن لم يكن هذا صحيحاً فكيف نفسر خضوعه لما شاع فى زمانه من التقاليد الأدبية ، والخضوع للتقاليد الأدبية دليل الحرص على انتهاب مايملك الناس »

وعن مكانة أبى العلاء فى الشعر العالمى ، قال الأستاذ خليل مطران : « لقد كان المعرى ذكى الفؤاد ، نفّاذ البصيرة ، قوى

الذاكرة ، متضلعا فى اللغة ، مستظهراً من أصولها وشواردها وأوابدها مالاتضمه دفتا معجم . وكان فيّاض القريحة فى نثره وشعره ، وإنما غلبت عليه فى نثره.وشعره نزعته إلى اللفظ الغريب والأسلوب الفخم . وقد يخيل إلى العارف بمقدرته البيانية وسخاء قريحته أنه لو استخدم هاتين القوتين للتعبير عن الأغراض التى وقف عليها الشعر والنثر قبله ، لجاء إلى جانب المتفوقين من الفحول الذين تقدموه بالزمن أو عاصروه ، إلّا أن محاكاة أبى علاء لأولئك كانت متسحيلة عليه لعله أُصيب بها وتأصلت فيه منذ طفولته . ويمكن القول إن أبا العلاء قد أخرج للناس من وحى فكره الحر آيات بينات ، ولكن لاسبيل إلى المقارنة بينه وبين شعراء الغرب ، فهم قد ألفوا فى قصائدهم وحدة الغرض وهو لم يألفها ، على أن مراميه الموزعة فى أبياته تنم عن تفوق فى الفكر وإن كان دونه قليلاً تفوقه فى صناعة الشعر »

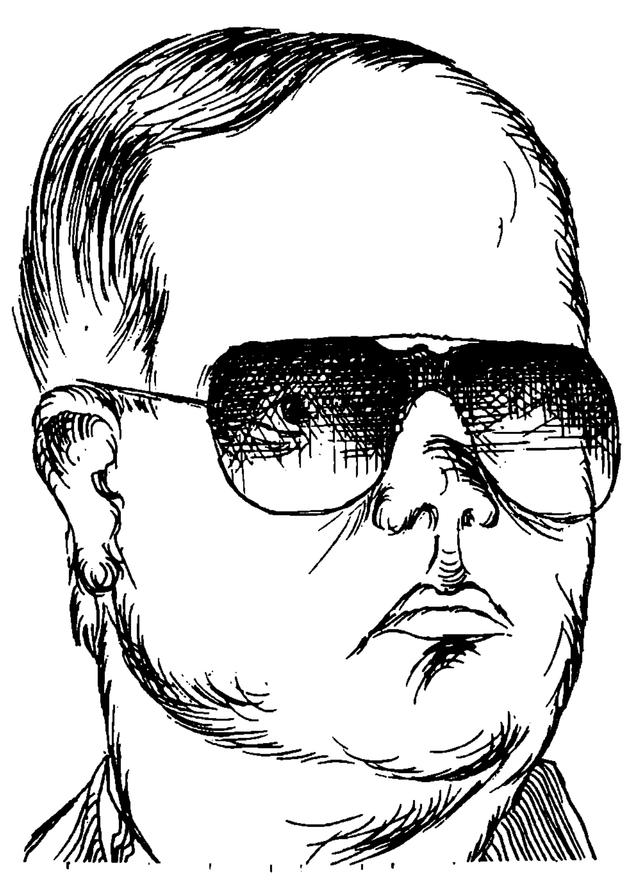
وعنه قال الاستاذ عبد الرحمن شكرى : « تأثر المعرى بعصره ، ولكنه ارتفع عن مستوى التفكير الذى كان شائعاً بين جمهور ذلك العصر وتلك ميزة العبقرى » .

وقال د . إبراهيم ناجى مقارناً بين المتنبى وأبى العلاء المعرى : « المتنبى رجل قوى متمرد يطلب « حقاً » ويجرى وراء ثأر ، طامع فى الملك والمال ، يبحث عن « مثل أعلى » فيخيب أمله ، وعندما يعثر على سيف الدولة ، يجرى من الحوادث مايخرجه من بلاطه حزيناً كئيباً ، وقد ظفر المتنبى بالمال والشهرة ولم يظفر بمطامعه

السياسية ، وقد عاش وهو ثائر ، ومات وهو ثائر ، ما اظن الحياة ولا الموت وجدا حيلة فى ذلك القلب القوى العنيف الذى ظل ينبض تحت التراب كما ظل ينبض فوق ظهره . أما أبو العلاء فيمثل أعلى مراتب العقل ، ذلك « العقل الهادىء » الذى تكلم عنه كونفوشيوس الصينى فقال إنه لايتاح إلّا للقليلين جداً .. ذلك العقل الذى ملك وحكم وصارت له السيطرة على صاحبه ، وعلى الحوادث حوله ، لاتزعزعه العواصف ولاتؤثر فى تفكيره الأعاصير ، عقل أبى العلاء أمره أن يعتزل فاعتزل ، وأن يزهد فزهد ، وأن يلزم محبسين فلزم ، كل ذلك فى هدوء ، وقوة وصبر هى من مواهب المختارين الذين أنعم الله عليهم ووهبهم من سره العظيم .

ويعقد الأستاذ على أدهم مقارنة بين أبى العلاء والفيلسوف الكبير شوبنهور فيقول : « بين أبى العلاء شاعر المعرة الفذ وحكيمها الأوحد وأرثر شوبنهور فيلسوف فرانكفورت الكبير ، الكثير من أوجه الشبه وأواصر القربى ، على تباعد الزمن واختلاف المكان وتباين الأصل ، فهما متقاربان فى اتجاه التفكير ولون المزاج وأسلوب الحياة ، وإن كان بينهما تفاوت بعيد فى منهج البحث والقدرة على ضبط النفس وكبح أهوائها ، وكلاهما يلمح الكون بناظر المتسخط المتبرم ، ويرى الأشياء فى ظلال قاتمة من التشاؤم والاكتئاب ، وينتهى به الأمر إلى رفض الحياة رفضاً باتاً لاقترانها بالألم وامتزاجها بالشر وإقفارها من المسرات ، ويرى فى الانتحار كبير بأس ، ويحاول تفنيد آراء من يعيبونه ، ويبشر بالزهد ويدعو إلى مقارنة الرغبة فى الحياة

والتعلق بها والحرص عليها ، وأبو العلاء يدعو إلى هذا المذهب ويقول بإيثار العدم على الوجود . وقد حاول أبو العلاء وشوبنهور القضاء على الأوهام وتبديد الأكاذيب ورفع الستار عن خدعة الحياة . وهما من هذه الناحية يمثلان جرأة الفكر فى أروع مظاهرها»



# صعلوك فى إسبانيا

## د . أحمد يونس

## د . أحمد يونس

زار الدكتور طه حسين تلميذه د . عبد الحميد يونس ، ترافقه معجزة القرن العشرين هيلين كيلر ، والسيدة سوزان طه حسين . وكان للدكتور عبد الحميد يونس طفل يدعى أحمد ، أعجب كثيراً بضيوف والده العظام الذين يمثلون بالنسبة له قمماً لامعة فى سماء العلم . وكم كان تشوق أحمد أن يحكى لرفاقه فى المدرسة عن هؤلاء الضيوف . وقضى الجميع يوماً سعيداً فى منزل د . عبد الحميد يونس ، وبالنسبة لأحمد كان يوماً مليئاً بالإثارة ؛ وتخليداً لهذا اليوم فقد التقطوا بعض الصور التذكارية ، ولما كان وقتها ، إذ بالسيدة سوزان طه حسين تجذب الطفل أحمد ليكون رابع الثلاثة المكفوفين : د. طه حسين ، وهيلين كيلر ، ووالده ، وكأن السيدة سوزان كانت تنظر إلى المستقبل من طرف خفى ؛ لترى أن الطفل احمد المبصر فى ذلك الحين سوف يلقى نفس المصير الذى ناله رفاق الصورة .

ولد الطفل أحمد عبد الحميد يونس فى التاسع من يوليو ١٩٤٩ م لأبٍ أستاذ بجامعة فؤاد الأول - القاهرة حاليا - كفيف ، رائد فى

مجاله ؛ يُدَرِّس الأدب الشعبى لأول مرة بالجامعة ، وأم من أوائل الخريجات فى الجامعة ؛ حيث درست علم الجغرافيا بكلية الآداب ، فنشأ الطفل أحمد مدللاً محوطاً بعناية أبيه وأمه فى هذا الجو السعيد المتألق الناضح المثقف ، نشأ أحمد نشأة هى حلم بكل المقاييس لمن هم فى مثل سنه .

مرت الأيام بأحمد سعيدة ، وعندما بلغ سن المدرسة التحق بمدرسة « أسماء فهمى النموذجية » وكان للجو الذى نشأ فيه تأثير كبير ليجعل منه تلميذاً متفوقاً دراسياً ولكن !؟ وفى حادث مفاجئ ترملت طفولة أحمد يونس ، وهى ماتزال فى شهر العسل .

ففى أحد الأيام ، وأحمد يونس يمارس لعبة كرة القدم – التى كان يعشقها – فى فناء المدرسة ، إذ به أثناء لعبة خشنة مع أحد الزملاء يصاب بانفصال فى شبكية العين .. وياله من تحولٍ مفاجئ حين يتحول طفل نشأ مثل طفلنا نشأة كلها مرح وحيوية إلى أن يصبح وقد فقد أعز مايملكه إنسان .

ويالعذاب هذا الطفل !! فقد شاء القدر أن يشعره بمدى فداحة مصيبته ، شاء القدر أن يفقد أحمد بصره تدريجياً وعلى مدى سبع سنوات – كان من المفروض أن تكون أجمل سنوات حياته – حتى أُصيب بكف كامل للبصر حين وصل لسن الخامسة عشرة ، وعلى حد قوله « وطوال هذه السنوات السبع كان وجه أمى يقل وضوحاً مع الأيام وكذلك بقية المرئيات حتى صحوت فى ذات يوم وأنا لاأرى شيئاً مطلقاً ، وهنا أدركت أنى قد عميت » .

وياترى كيف مرت تلك السنوات السبع العجاف على هذا الطفل ؟ فى أثناء السبع السنوات التى بدأ نور بصره فيها يخبو شيئاً فشيئاً – كان الطفل أحمد يدرك حجم مشكلته ، وأنه فاقد بصره لامحالة . فما كان منه إلا أنه بدأ يركز بصره على كل منظر يراه ، يقيناً منه أنه ربما لايراه مرة أخرى ، وجمع أحمد فى ذاكرته كمية ضخمة من صور المرئيات : أمه ، أبيه ، أخته ، أقاربه ، الشارع ، شقتهم ، المدرسة ، وكل شىء يراه ، كان يود أن يحفظه فى ذاكرته .

بدأت متاعب أحمد بالمدرسة ، فقد كان عليه – وبعد أن خفت ضوء عينه – أن يترك مدرسته ، وأصدقاءه ، يترك مدارس الأطفال العاديين ؛ ليلحق بإحدى مدارس المكفوفين : « المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين » ليتلقى النظم التعليمية التى تتناسب مع من هم فى مثل حالته : « وفى تلك الفترة كان علىَّ أن أغادر مدرسة « أسماء فهمى » إلى مركز رعاية وتوجيه المكفوفين ، وفى ذلك المركز لقيت مالقيت ، فقد أحسست أنى لم أعد سجيناً لبصرى فحسب ، ولكن زاد السجن علىّ فى هذا المركز . وداخل تلك الجدران أحسست أننى طفل حُكم عليه بالسجن بلا جريمة ارتكبتها ، فأصبحت كرهين المحبسين ، وكانت هذه الفترة فى المركز فترة أحزان بالنسبة لى ، ولكننى على الرغم من ذلك استطعت الاستفادة منها ، وتعلمت فيها الكثير مما يناسب من هم فى مثل حالتى ، إنه لشىء تضيق النفس به أن تشعر أنك معزول عن المجتمع لسبب لا يَدَ لك فيه .

هذا عن حال أحمد فماذا عن حال أسرته ؟

يمكننا أن نحاول استنتاج حال هذه الأسرة التى كان أحمد بالنسبة لها يمثل كل مايمثله ابن وحيد فى أسرة شرقية ، ناهيك أن يكون رب هذه الأسرة مكفوفاً ، ولنا أن نتخيل حجم الآمال التى يضعها فى طفله المبصر ، والذى كان يعدُّه لمستقبل مشرق ، وكيف كان حزن أبيه وأمه وهما يحسان به وهو يفقد بصره يوماً بعد يوم ، وهما لايستطيعان فعل أى شيء ، ومع كل يوم يمر تتضاءل آمال الأب فى أن يشفى ولده ، وأن يتمتع بتلك النعمة التى شاء الله أن يحرم منها والده : « كانت هذه الفترة من حياتى فترة قاسية على الجميع فقد أصاب الجميع وجوم دائم ، وهى حالة طبيعية تحدث لأى أسرة تشعر أن أحد أبنائها بدأ يفقد بصره وهو مايزال طفلاً . وكنت أشعر بحزن والدتى فلم تكن تستطيع أن تكتم مشاعرها حتى إنها قررت مقاطعة الذهاب إلى السينما من أجلى ، ولكن أبى الذى كان أشد صبراً واستيعاباً للموقف رفض هذا الموقف منها ، ودعاها إلى التصرف بشكل طبيعى ، وكان على أمى أن تبدأ معى نفس الرحلة التى بدأتها مع أبى » .

ونظراً لما كان يتمتع به أحمد من ذكاء وفطنة ، لم يكن ليرضى أبداً أن ينتهى مستقبله هذه النهاية ، ولم يكن ليقبل أن يصبح مجرد مكفوف يتسول فى الشوارع وأمام المساجد ، فقد كان أحمد يشعر بأن لديه الكثير والكثير لكى يقدمه ، وأن فقد بصره – أبداً – لن يكون حائلا بينه وبين مايريد فما كان منه إلا أن قرر أن يترك

المدرسة - مدرسة المكفوفين - ليبحث عن مستقبله خارج أسوارها ، يبحث عن مستقبله فى العالم الواسع وليس فى مصر وحدها ، وكان أحمد طوال فترة بقائه فى مدرسة المكفوفين يعدُّ لقرار على مستوًى عالٍ من الخطورة ، ألا وهو السفر إلى الخارج ؛ إلى أسبانيا ، ولكن كيف ؟

كيف يقنع أسرته بما يريد لنفسه من مستقبلٍ ؟ وكيف يطمئن أسرته لتركه كى يسافر وحده ، وهو فى مثل هذه الظروف ، إنه لجنون منه أن يفكر هكذا ، وجنون ممن يظن أن هناك من سيوافقه على قراره ، ولكن ؟! وعلى لسانه يقول : كان علىَّ أن أبحث عن مكان آخر كى أبدأ فيه حياتى ، ولم أكن أخشى السفر ؛ فلم يكن هناك مايمكن أن ينالنى أكثر مما أنا فيه بالفعل ، وكان علىَّ أن أترك المدرسة الداخلية ، ولكن كيف لى أن أقنع أسرتى بما أريد ؟ لقد كان أبى وعلى الرغم من رفضه للفكرة أكثر تفهما - بسبب ظروفه - لمشاكل من هم فى مثل حالتى ، وكذلك كان أكثر إدراكاً لما لدى من طاقات وقدرات يمكننى أن أستغلها بنجاح » .

وبين شدٍّ وجذب وبعد جهد جهيد بذله أحمد مع كلا والديه ليظفر بموافقتهما على السفر ، وافق الوالدان ، وكان فى اعتقادهما أنها رحلة ستسرى عنه ماهو فيه من عذاب ، ولن تستمر أكثر من شهر ، ثم يعود ليكمل حياته فى مصر ، ولكن تلك الرحلة التى ظنها الوالدان قصيرة ، استمرت قرابة مايزيد على أربع عشرة سنة .. واستعد أحمد للسفر إلى إسبانيا وهو يعلم كلَّ العلم أنها ليست نزهة إلى القناطر

الخيرية ثم يعود ، ولكنها إسبانيا بكل ماتحمله لفتى فى مثل سنه من مخاطرة ، فهى بلد لايعرف عنها أكثر من اسمها وبعض المعلومات القليلة التى لاتزيد عن معلومات غيره ممن يعيشون فى مصر ، ولكن لماذا إسبانيا ؟ يحكى لنا عن سبب اختياره لهذه البلدة وعن سفره ، فيقول د أحمد يونس : « وكان سبب اختيارى لإسبانيا أننى لم أسمع بأن أحداً ممن هم فى مثل حالتى قد سافر إليها ، فالكل – وعلى رأسهم د . طه حسين – قد سافر إما إلى فرنسا أو إنجلترا ، فكانت بالنسبة لى أرضاً أودُّ أن أكون أول من اكتشفها ، وكان أول ماقابلته خارج مصر صوتاً لمضيفة إيطالية ، كلمتنى بإنجليزية أعرفها ، فقالت : إنه لجنون أن يسافر طفل فى مثل سنك وفى مثل حالتك إلى بلد لايعرف لغتها ، فقلت لها ربما يكون ذلك عادياً فى المستقبل ، ووصلت إلى مدريد مساء يوم ١٩٦٤/١٠/٢٦ م وعندما وصلت كانت درجة الحرارة تحت الصفر ، والمطر ثلوج لاماء ، وكل من حولى يتكلمون لغة لا أفهمها ، ويتحركون بسرعة وجدٍ لم أره من قبل ، يالها من مقابلة !! وكان علىَّ أن أواجه أقسى رحلة يمكن أن يعرفها إنسان فى ظروفى وأحسست منذ البداية أنها مغامرة شاقة ، وأدركت أيضا أن المسألة ليست خيالاً بل حقيقة ، فقد كان من الممكن أن أموت جوعاً فى ذلك البلد الذى لا أعرف فيه إلّا نفسى » .

وسنبتعد قليلاً عن الرواية ، تاركين الحديث لمن هو أكثر منا قدرة على الرواية بأقصى شكل من الدقة ، سنترك الرواية للدكتور أحمد

يونس ، يقول « وفى مدريد كان علىّ أن أدخر بقدر الممكن وغير الممكن ، فلست أدرى ماذا يمكن أن يحدث لغريب مثلى فى هذا البلد ، لو فقدت مامعى من مال . فسكنت فى فندق رخيص الثمن ، واستطعت العثور على عنوان لإحدي الأسر التى تستضيف الطلاب بمبالغ رمزية ، وكذلك فقد اعتمدت على مرافق بمبلغ زهيد ، كل هذا كان داعياً لى على التفاؤل ، ولكن كيف أتفاءل وأنا أعيش فى بلد ووسط شعب أجهل لغته ؟ فكان علىَّ أن أبدأ أول ما أبدأ بمحاولة تعلم اللغة الأسبانية ، وفى جامعة مدريد وجدت قسماً يعلّم الأسبان اللغة العربية ، فالتحقت به وتعلمت الإسبانية بطريقة عكسية ، وهى أن أعرف الكلمة العربية ومايقابلها فى الإسبانية ، وكان من حسن طالعى أن تعرفت على بعض الزملاء الذين طلبوا منى أن أساعدهم فى تعلم اللغة العربية ، واشترطت عليهم أن يعلمونى لغتهم الإسبانية ، على أن الفضل فى تعلمى هذه اللغة يعود إلى طفل صغير يدعى « خوان » وكان عمره خمس سنوات ، كان مايزال يستجمع مفردات لغته ، فتعلمتها معه بنفس طريقته .

وبعد أن تعلمت الإسبانية قررت أن أبدأ مشوارى التعليمى ، وتقدمت للدراسة ظناً منّى أننى سأكمل فى المرحلة الثانوية بعد أن أتممت الدراسة الإعدادية بمصر قبل سفرى ، ولكنهم رفضوا الاعتراف بأى شهادة حصلت عليها ؛ لمخالفة المناهج المصرية للمناهج الإسبانية وكان علىَّ أن أبدأ من الصفر ، وبالفعل بدأت من المرحلة الابتدائية ، فدرست عدة سنوات معاً فى سنة واحدة منتسباً إلى

المدرسة لكبر سنى واشتغالى بعدة أعمال فى تلك الفتره : منها عملى كعامل سويتش ، عامل مساج ، مصفق فى المسرح ، وأعمال اخرى ، كلها متواضعة ، ولكنها كانت توفر لى المال الذى يفيدنى فى إكمال مشوارى الذى بدأته ، ولم تكن أيامى كلها عملاً ، فقد مرت بى بعض الأيام ، ولاعمل لى ، فلم أجد ماآكله فكنت آكل بعض كسرات الخبز التى كانت تُلقى للبط فى إحدى البحيرات ، وترجع حاجتى إلى المال وسعيى فى طلبه إلى أننى لم أكن أريد أن أُحمِّلَ أسرتى فوق ماتطيق . وبعد مجهود ليس بالعظيم استطعت الحصول على لشهادة الابتدائية ، ثم الإعدادية ، ثم تقدمت لنيل الشهادة الثانوية – وهى مزيج من القسمين الأدبى والعلمى فى مصر – واستجمعت كل مالدى من طاقة ، ومرت بى الأيام صعبة ؛ أعمل وأدرس ، وكان الله معى والنصر حليفى ، ولم أصدق نفسى حين نجحت بتفوق وكان مجموعى ٩١٪ ومن هنا زاد أملى فى الالتحاق بالجامعة فى محاولة جادة لتحقيق ماجئت من أجله .

وفى هذه الفترة الحرجة كان قلق الأسرة يزداد يوما بعد يوم ، وخصوصاً بعد أن طالت الرحلة ، ولكنهم ، وبعد أن علموا بنجاحى – بعث لى والدى برسالة أسعدتنى كثيراً ومازلت أذكرها حتى الآن ، قال فيها « الأسرة كلها فخورة بك داعية لك » كان تفوقى داعياً لى أن أنال منحة من الحكومة الإسبانية للدراسة فى الجامعة ، هذه المنحة تلغى إذا لم أنجح فى كل المواد فى كل عام ، وكان هذا تحدياً آخر كان علىَّ أن أواجهه ، فقد كنت حريصاً على المنحة ، وكنت كذلك حريصا على ان أنهى دراستى بأسرع مايمكن ، فقررت ماظنه المقربون منى مستحيلاً ،

قررت أن أحصل على البكالوريوس فى سنة واحدة بدلاً من خمس سنوات ، وبناءً على ذلك كان عليَّ أن أدرس ٣٧ مادة هى جملة المواد المقررة فى الخمس السنوات ، وذلك على فترتين دراسيتين أو مايسمى بنظام (الترام) . فى هذه السنة لم أخرج من بيتى إلّا نادراً ، ولم أكن أقابل أصدقائى ، وإن قابلتهم فكلهم يتوقع لى الفشل . وقد أبلغنى أحد الأصدقاء بأن عميد الكلية قال له : « إن عليه أن ينصحنى بعدم الإقدام على هذه المحاولة ، فكيف يقوم شاب أجنبى فى سنه بما يفعله الشبان الإسبان فى خمس سنوات ؟ » وقد وفقنى الله وتغلبت على كل الصعوبات التى واجهتنى فى دراسة هذه الكمية من المواد الدراسية ، ولكن كانت المشكلة هى ماذا أفعل فى الامتحان ؟ وإن كنت قد استطعت التوفيق بين هذه المواد فى المذاكرة فكيف أوفق بين امتحاناتها التى ربما جاء امتحانان منها فى وقت واحد ، وكان التحدى صعبا ، فكان عليَّ أن أمضى نصف الوقت فى إحدى قاعات الامتحانات والنصف الآخر فى قاعة أخرى إذا تصادف وجاء امتحانان فى نفس الوقت ، وكنت أضع فى ذهنى أن فشلى فى أى مادة من هذه المواد معناه الوحيد أن أعيد كل هذه المواد مرة أخرى ، وكذلك معناه فقدان المنحة . إذن فلا بديل لى عن النجاح ، وإما أن أكسب كل شىء أو أفقد كل شىء .

وكانت المفاجأة لى قبل الجميع ؛ فقد حصلت على البكالو يوس بتقدير امتياز ، وإذا بالعميد يستدعينى ؛ ليهنئنى ويعلن لى تعيينى كمعيد بالكلية ، وهنا أحسست أن وجه الحياة قد تغير ، وأنها ربما لن ترينى وجهها القاسى مرة أخرى .

وهكذا استطاع أحمد - الذى فقد بصره طفلاً - أن يثبت أن مستقبل الإنسان لايتوقف إلّا عندما يوقفه صاحبه ، وأن العاهة التى تصيب إنساناً - ولو كان فى بداية حياته - لاتثنيه عن أن يكون كما أراد لنفسه طالما امتلك العزيمة والإرادة التى تساعده فى حياته .

ولم يكن شاب فى مثل إرادة أحمد يوس وطموحه ليتوقف عند درجة الكالوريوس ، فبعدها مباشرة بدأ الإعداد لنيل درجة الماجستير ، وكان موضوع الرسالة « نظرية الانتحار » وفيها يقول : « إن القتل المادى من الإنسان لنفسه ليس الشكل الوحيد للانتحار ، ولكن الإنسان الذى ينسحب من الحياة تاركاً الناس ، ليحيا بمعزلٍ عنهم ينتحر هو الآخر » ونال درجة الماجستير بدرجة امتياز ، ليتأهب لدراسة الدكتوراه ، وكان موضوع الرسالة هذه المرة يتعلق بعلم النفس الجمالى ، وهو علم يبحث فى النفس البشرية وكيف تواجه ظاهرة الجمال بأشكاله المختلفة ، وكانت الرسالة تتعلق بـ « أسباب إحساس الإنسان بالجمال ، وهل يكمن الجمال فى التناسق التكوينى بين الألوان والأصوات ؟ ولماذا يتأثر الإنسان بمنظر الغروب ؟ وهل تأثره هذا يعود إلى مجموعة الألوان المكونة للمنظر أم لأنه يعنى بالنسبة للإنسان النهاية التى لابد منها » وتم النجاح لأحمد هذه المرة أيضاً ، وكان تقدير اللجنة التى ناقشت الرسالة ، للرسالة وصاحبها درجة الامتياز ؛ تقديراً منهم للمجهود الضخم الذى بذله هذا الشاب الأجنبى فى هذه الرسالة وكان حصول أحمد على الدكتوراه ضوءاً أخضر ليصبح أحمد يونس مدرساً بجامعة مدريد .

عمل د . أحمد يونس مدرسا بجامعة مدريد لمدة ثلاث سنوات قرر بعدها أن يُنهى جميع أعماله فى إسبانيا ويعود إلى حضن الأم ، مصر ، وفى سبيل العودة إلى الوطن فقد وظيفته تلك التى نالها بعد مشقة وعناء ، فقد كل الانتصارات التى حققها على أرض إسبانيا ، ولكن كل ذلك قليل من أجل مصر .

وأول ماجال بخاطره عند عودته إلى مصر أن يفيد بلده بعلمه الذى تعلمه فى إسبانيا ، فسعى إلى العمل فى أحد أقسام علم النفس فى الجامعات المصرية ، أو كطبيب معالج حيث تؤهله دراسته للعمل كطبيب نفسى .. ولكن حدث معه فى مصر نفس ماحدث معه فى إسبانيا ؛ حيث أن دراسته هناك ليس لها مايقابلها ، وعلم النفس الجمالى لايدرس فى أى جامعة مصرية ، وبناء على ذلك لم يعين مدرساً بالجامعة .. فماذا يفعل ؟

كان د . أحمد يونس أثناء وجوده فى إسبانيا يعمل مراسلا لبعض الصحف العربية ، وكان حبه للصحافة يدفعه إلى الاستمرار فى نفس المجال الذى أحس أنه خلق للعمل فيه ، وبالفعل عمل د أحمد يونس صحفيا بجريدة الأهرام ، ومرت به الأيام وهو سعيد بعمله الذى أحبه حتى جاء الوقت الذى أرادت فيه الحياة أن تريه وجهها العابس مرة أخرى ، وتذكره بما كان عليه حاله من قبل أن تبتسم له ، فصدر قرار بفصله من جريدة الأهرام مع زملاء آخرين ومنعه من السفر ، وذلك ضمن قرارات سبتمبر سنة ١٩٨١ وكان هذا لا يعنى فصله عن عمله ، ولكن فصله عن روحه .

وبعد زوال الغمة صدر قرار جديد بعودة المفصولين إلى أعمالهم مرة أخرى فأسرع د . أحمد يونس بالعودة إلى مهنته الأثيرة لديه ، ولكنه لم يعد إلى مؤسسة الأهرام ، بل عاد صحفياً فى مؤسسة أخبار اليوم ، وبعد عودته إلى الصحافة أحسّ بان هناك قطاعاً كبيراً من الشعب مهملاً ، ألا وهو قطاع المعوقين - بكافة أنواع الإعاقة - وأن مايوجَّه إليهم من اهتمام ليس بكافٍ أو متناسب مع عددهم وطاقاتهم ، وأول مافعله أن طلب من الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء تزويده بمعلومات عن عدد المعوقين فى مصر ، فأجاب الجهاز بأن عددهم بلغ ١١١,٣٢٤ فى عام ١٩٧٦ م ولكن د . أحمد يونس كان يريد معرفة عددهم فى ١٩٨١ م أو حسب آخر إحصاء ، فسعى إلى البحث فى المستندات الدولية ؛ ليكتشف المفاجأة وهى أن عددهم فى سنة ١٩٧٦ هو ٤,٨ مليون معوق مصرى، ولاشك أنه عدد ضخم يوجب الاهتمام بهذا القطاع من المواطنين على نحو يوفر لهم حياة كريمة بما يتناسب مع إعاقاتهم المختلفة .

وكرّس الصحفى المعوق كتاباته للدفاع عن قضايا المعوقين ومحاولة طرح مشكلاتهم على الساحة للوصول إلى حل لها . ولم يكتف بكتاباته فقط ، بل طرح آراءه فى مشكلة المعوقين وحلها فى كل أحاديثه التليفزيونية والإذاعية .

وفى العيد الرابع للمعوقين المصريين اختاره المعوقون ، أباً روحياً لهم على الرغم من صغر سنه ، تقديراً منهم لجهوده الضخمة فى خدمة قضاياهم الملحة ، وكذلك تقديراً لإسهاماته الجليلة فى النهوض بحقوق المعوق المصرى .

ولم يتوقف د . أحمد يونس عند قطاع المعوقين،ولكنه أحس بمسئوليته تجاه كل مصرى . فتحت شعار « من لايملك خبزه لايملك حريته » نادى بأن علينا أن نهتم بالزراعة ممثلة فى أهم محصول بالنسبة للشعب المصرى ، ألا وهو القمح ، ونادى بإحياء عيد القمح مرة أخرى ، وفيه يكرم كل من أسهم فى زيادة المحصول ؛ محاولة لرفع مستوى الإنتاج ؛ للتخلص من عبء استيراد القمح من الخارج وللتخفيف عن كاهل الشعب والحكومة .

وواجه د . أحمد يونس الكثير من المصاعب من أجل هذا الاحتفال ، وخصوصاً التمويل المادى ، ولكنه نجح أخيراً فى إقامته لثلاثة أعوام على التوالى ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

وقد ألف د . أحمد يونس أكثر من خمسة عشر مؤلفاً غير المؤلفات التى نقلها من الإسبانية إلى العربية ، ومن مؤلفاته : مسرحية الكائن الوحيد الذى يذكر ، القاهرة ليلة الجمعة الحزينة ، ابتسامات شاحبة ، روايات سكة الندامة .. وغيرها .

ويعمل د . أحمد يونس صحفيا وناقداً فنياً بجريدة الأخبار ، حصل على جائزة أفضل عمود صحفى لعام ٩٠ وعلى جائزة أفضل ناقد لعام ٨٤ و٨٥ و٨٦ و٩٠ . وكذلك على حب معوقى مصر الذين أخلص لهم .



# عمـــار الشـــريعى

## غواص فى بحر النغم

لايخلو مجتمع إنسانى .. من قبل التاريخ وحتى الآن – من بعض مواهب فذة تحتل مكان الصدارة منه . هذه المواهب الفذة لم تكن أبداً لتصل إلى هذه المكانة لولا أنها تملك شيئاً مايدفعها إلى الأمام وأنها تملك إرادة لاتعرف المستحيل . وهذه المواهب مهما واجهت من صعاب فإنها – حتماً ولابد – ستصل يوماً ما إلى ماتريد ؛ لأنها – أى هذه المواهب – تؤمن إيماناً راسخاً بأنها صاحبة رسالة ، لابد أن تؤديها إلى الناس كافة بكل الوسائل المتاحة مهما تحمّلت فى سبيل ذلك من عنت ومشقة ؛ لأنها أبداً لاتتراجع ، لاتكلّ ولاتملّ ، تواصل كفاحها يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، وهى فى النهاية تصل إلى ماتريد .

وفى سبيل توصيل رسالة هذه المواهب للناس يجب أن يضحى صاحب الموهبة بكل شىء مهما كانت قيمته ؛ يضحى بكل غالٍ ونفيس لو وقف معوّقا لها فى طريقها لإثبات ذاتها . كل هذه التضحيات من أجل شىء واحد ، ألا وهو توصيل تلك الرسالة

للناس ؛ فصاحب الموهبة الحقيقية أشبه مايكون بنبي يعانى ويتحمل كل المشقات وهو لايستطيع التراجع أو التنازل عن هذه الرسالة ؛ فالموهبة منحة إلهية كالنبوة وكلٌ له فائدته وجليل أثره فى المجتمع الإنسانى .

والموهبة - كما يعلم الجميع - نعمة لايمكلها كل الأشخاص ، بل يملكها بعض المتميزين فى كل عصر الذين تتحدد مواصفاتهم بما يتمتعون به من قدرة عالية على الإبداع والخلق .

ومن هذه المواهب الفذة ؛ هذه الموهبة التى بين أيدينا الآن ؛ موهبة ظهرت مع نهاية العقد السابع من القرن الحالى ، ضحت بكل شيء حاول أن يعوقها عن الوصول إلى هدفها ، هذه الموهبة الموسيقية المتفردة هى موهبة الفنان عمار الشريعى ؛ ذلك الفتى المعوَّق (الكفيف) الذى عمل منذ مطلع شبابه وطفولته على صقل نفسه فى المجال الموسيقى ؛ حتى يصبح فى يوم من الأيام على تلك الحال التى وصل إليها الآن ، ويصبح له من الشعبية ماله ، ومن الموهبة ماشهد بها جميع المتخصصين فى المجال الموسيقى ، وله من الأعمال التى علقت بذهن المستمع العربى الكثير .

وُلِدَ الفنان عمار الشريعى فى الرابع عشر من سنة ١٩٤٨ م لأسرة من الأسر العريقة فى صعيد مصر ، قضى عمار السنوات الأولى من عمره فى مدينة سمالوط بمحافظة المنيا ، وكان عمار - دائماً - يحاول التعرف على كل ماحوله من أشياء وأشخاص فى محاولة للتفاعل مع مجتمع لايراه ، وكل مايربطه بهذا المجتمع بعض الأصوات التى

تخترقه مكونة صوراً غير مرئية لموجودات الطبيعة . وكان لهذا كله دور مؤثر فى تنمية قدرته على التخيل والخلق والإبداع . وقد عملت طبيعة الريف المصرى على ربط عمار بالأصوات والنغمات منذ فجر طفولته المبكر ؛ وذلك أن طبيعة الريف المصرى ومايمتلىء به من طيور وحيوانات وأشخاص تساعد - وبشكل إيجابى - فى إيجاد تشكيلة متنوعة من الأصوات المختلفة المتميزة . فى هذا الريف استطاع عمار أن يتعرف على موهبته ويكتشف بذرة الفنان داخله ، وكذلك استطاع أن يكوّن ثقافة موسيقية واسعة ، وخصوصاً فى الفن الشعبى الذى لم يكن ليتعرف عليه لولا نشأته فى قلب صعيد مصر .

عند وصول عمار لسن التعليم التحق بالمركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين (مدرسة طه حسين حاليا) ويحكى عمار عن هذه الفترة المبكرة من حياته والتى كان لها عظيم الأثر فى حياته الموسيقية فيما بعد وكانت الركيزة الأساسية فى تشكيل وجدانه الموسيقى وإظهار موهبته ، يقول : « عند بلوغى سن التعليم التحقت بالمركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين والذى كان محور التحول فى حياتى كلها ، ففيه تعلمت الموسيقا على حقيقتها . عند التحاق بالمركز لم يكن به سوى ثلاث فرق دراسية فقط لاغير ، وهى ثانية ابتدائى ، أولى ابتدائى ، والروضة التى التحقت بها ، ولم يكن لدى إدارة المدرسة فى تلك الفترة خطة محددة لتشكيل مستقبل المكفوفين ولاتصور كامل لفكرة التعليم النظامى لهم ، وكانت التجربة ماتزال فى مهدها ، وكنا نعانى من اضطراب شديد بسبب هذا المستقبل المجهول لنا ، ولم نكن نعرف هل سنكمل فى المرحلة الإعدادية أم لا . وقد

أدى هذا الاضطراب وعدم وضوح التخطيط إلى اتخاذ إدارة المدرسة لثلاثة اتجاهات يدرس كل منها بشكل مكثف جداً ؛ هذه الاتجاهات الثلاثة هى : الاتجاه الموسيقى ، والاتجاه المهنى ، والاتجاه الدينى . ولماذا هذه الاتجاهات ؟ كان فى تخطيطهم أنه إذا فشل موضوع التعليم النظامى للمكفوفين فإن الطالب وبعد انتهاء المرحلة الابتدائية – سيكون اتجاهه إلى ثلاثة أماكن ؛ إما إلى معهد الموسيقا فعليه إذن أن يدرس الموسيقا ، وإما إلى مصنع أو ماشابه فعليه أن يتعلم مهنة ، وإما إلى الأزهر فعليه أن يدرس العلوم الدينية ، ومن أجل هذا كانت الدراسة مكثفة فى الاتجاهات الثلاثة ، وعند اختيار الأقسام كانت وزارة التربية والتعليم ترسل نخبة من المتخصصين لاختيار أفضل العناصر فى كل قسم ، وكان القسم الموسيقى هو أفضل الأقسام ، ويختار له كل من يتوسم فيه المتخصصون القدرة على الإبداع الفنى ، يليه القسم المهنى ، ويختار له من لديه مهارات يدوية وتقارير جيدة فى هذا المجال ، ثم يأتى بعد ذلك القسم الدينى على اعتبار أن أفراده ممن سيلتحقون بالأزهر لايتطلبون مواهب خاصة » ويضيف الفنان عمار الشريعى موضحاً كيف كانت حياته فى تلك الفترة وتأثره بالحياة الداخلية فى المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين ، وكيف استطاع الالتحام مع أقرانه فى تلك المرحلة فيقول : « فى المركز تعلمت الالتحام مع الجماعات ، واكتسبت من زملائى أسلوبهم فى الحياة والحديث ، ونسيت حياتى الأرستقراطية نوعا ما ؛ فقد كنت أعايش أقرانى فى المدرسة لفترات قد تجاوز الأشهر العشرة كل عام ، فى حين أنى لا أعيش بين أهلى وأسرتى سوى شهرين فقط

كل عام . جعلنى هذا أكتسب إحساس الشارع المصرى ، وأتعرف عليه بشكل واقعى داخل جدران المركز ، فكان بمثابة انفتاح لى على المجتمع الخارجى .

فى المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين ، تعلمت الموسيقا ؛ ولذلك فأنا أدين لهؤلاء الذين ساعدونى بكل نجاحى . من هؤلاء الناس الذين ساعدونى ، مدرس التربية الرياضية الذى كان يهوى الموسيقا بالمعنى الأكاديمى للكلمة ؛ حيث كان يقرأ النوتة ويفهم فى التوزيع الموسيقى ، وكان ملحناً وقفت كل الظروف ضده ، فقد تقدم للإذاعة ٤٤ مرة فشل فيها جميعاً ولم يقبل . وفى اعتقادى الشخصى أن هذا الرجل هو صاحب أكبر الأفضال علىّ ؛ لأنه علمنى الموسيقا بحق ، ومن خلاله تعرفت على مدرسة « الهادلى سكول » مدرسة المراسلة الأمريكية ، ومن خلاله تعرفت على فنون مثل الموشحات ، ومن خلاله راجعت بعض علوم الموسيقا مثل الهارمونى وغيره ... ولم يكن هذا المدرس هو الوحيد الذى ساعدنى ؛ فهناك أساتذة كثيرون غيره ساعدونى ، ومنهم مدرس الموسيقا الذى كان يترك لى مفتاح غرفة الموسيقا لفترات طويلة ؛ لأواصل التدريب غير مبالٍ بما يمكن أن يضيع منها أو يتعرض لأى لون من ألوان التلف ، هذا مع العلم بأن كل ما فى الغرفة كان فى عهدة هذا المدرس ، وكان من أولئك الذين لا يستطيعون تسديد ثمن أى شىء يفُقد من العهدة ، ولكنه لم يكن يحسب لكل ذلك حساباً ، كل ما يهمه أن يساعدنى ، وذلك بعد أن شعر بأن لدىّ موهبة موسيقية . وغيرهما كثيرون ساعدونى ....

وبعد مرور السنوات وقبل حصول عمار على المرحلة الثانوية – أصبح ممكنا التحاق المكفوفين بالجامعات المصرية ، ولكن ظلت بعض الكليات ترفض التحاق المكفوفين بها ، حدث هذا عند تقدم عمار للالتحاق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، وكذلك كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية الذى كان يرفض دخول المكفوفين حتى استطاع أحد الكفوفين الالتحاق به قبل دفعة عمار بعام . وقد كانت الكليات ترفض فى البداية قبول المكفوفين باعتبارهم ظاهرة غريبة على الجامعات المصرية ، حيث بدأت مدارس المكفوفين تصب فجأة فى نهر الثانوية العامة ثم الجامعة ، فزاد عدد المكفوفين بشكل مطرد ، وكانت الكليات جميعها تخشى من فشل التجربة ، ولكن أثبت الكفوفون كفاءتهم ، ونجحت التجربة ، والتحق عمار الشريعى بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة عين شمس .

وفى الجامعة تفتحت موهبة عمار ، وبدأت شخصيته الموسيقية تستكمل أبعادها ، وبدات موهبته تنضج وظهر عمار شخصية نشطة فى العمل الطلابى فى الجامعة ، وخصوصاً فى المجال الفنى . ويروى لنا الفنان عمار الشريعى قصة سنوات الجامعة الأربع وكيف قضاها فيقول : « التحقت بالجامعة فى العام الدراسى ٦٦ـــ ١٩٦٧ وأمضيت بها أربع سنوات ، حاولت خلالها استغلال طاقاتى ؛ حتى أكون عنصراً نشطاً فى العمل الطلابى ، وبالفعل اشتركت فى اتحاد الطلاب رئيساً للجنة الفنية لثلاث سنوات وعن الجامعة عضواً فى اتحاد طلاب الجمهورية لمدة عامين . ولكننى أذكر أنى حين دخلت الجامعة كيف كنت أشعر بمشاعر مختلفة تتنازعنى ، وإحساس متوتر مضطرب

يتملكنى وكذلك شعور بالغربة ، حيث انتقلت فجأة من مدرسة داخلية وعالم مغلق على أفراده إلى الجامعة وعالم مفتوح على الجميع . على أن نشاطى فى المجال الفنى لم يتوقف على المجال الموسيقى ، بل كنت أكتب الشعر من حين إلى آخر فى محاولة منى لإخراج كافة طاقاتى الإبداعية . ومن ذكرياتى فى الجامعة التى لا أنساها ، أننى فى أحدى الحفلات الموسيقية الجامعية كنت أعزف على العود ، فطارت منى الريشة ، فما كان منى إلا أن فتحت ياقة القميص أمام الجمهور وأخرجت منها الباغة التى كانت تُوصع فى الياقات فى ذلك الوقت ؛ لأعزف بها على أوتار العود بدلًا من الريشة . وانتهيت من الدراسة الجامعية فى عام ١٩٧٠م واحترفت الموسيقا ، وتوقفت عن كتابة الشعر ؛ وذلك لإحساسى بأن الفنان شحنة إبداعية واحدة تستنفد فى أى اتجاه ، ففضلت استنفادها فى العمل الموسيقى ، غير أنى لا أنكر أن هناك من الناس من لديهم القدرة على الكتابة والتلحين ...»

وبدأت مواجهة عمار مع الواقع فور تخرجه من الجامعة ، حيث اعترضت أسرته العريقة الصعيدية على عمل أحد أبنائها فى المجال الفنى وهو شيء فى عرف أهل الصعيد عار لا يمكن إزالة آثاره واجتمعت العائلة كلها لمناقشة هذا الأمر ومحاولة إقناعه بالرجوع عن هذا الطريق ، حتى وصل الأمر بأحد أعمامه أن قال له :« أنت ديتك طلقة ومتساوشى ..» ويوماً بعد يوم بدأت الضغوط العائلية تزداد على عمار فاضطر لترك المنزل من أجل الموسيقا ، واضطر للاعتماد على نفسه فى ظروفه هذه . وقد جعله فقدان التأييد العائلى يبدأ من أسفل درجات السلم أو حسب تعبيره :« من تحت تحت الأرض » . بدأ

عمار مشواره الفنى بالعمل فى أماكن متواضعة ، ووصلت به الحال فى بعض الأحيان أن عمل على مسارح من عربات الكارو ، حتى تطورت حاله وبدأ يتنقل من مكان إلى مكان ومن فرقة إلى فرقة ، حتى أصبح له عمله الثابت الذى يؤديه يومياً وبشكل منفرد ، وبدأ بعد ذلك طريقه فى التلحين .وكانت أولى خطوات عمار فى طريق الشهرة بموسيقا لمسلسل إذاعى « الحياة فى زجاجات فارغة » أذيع فى عام ١٩٧٤ م ، ثم تلا ذلك عمل الموسيقا التصويرية لمسلسلات التلفزيون ، وكانت البداية مع مسلسل « بنت الأيام» سنة ١٩٧٥م . على أن دخول عمار الشريعى إلى مجال الموسيقا التصويرية للأفلام السينمائية قد تأخر ؛ وذلك لعدم اقتناع المخرجين واستيعابهم لفكرة قيام كفيف بعمل موسيقا تصويرية لفيلم ؛ حيث إن هذا العمل يعتمد على مشاهدة الملحن للفيلم أولًا . وفى سنة ١٩٧٨ كانت بداية عمار الشريعى مع الموسيقا التصويرية لأفلام السينما .

وفى سنة ١٩٨٠ استطاع عمار الشريعى أن يكوّن فرقة موسيقية سماها « فرقة الأصدقاء» ولكنها لم تلبث أن حُلّت فى عام ١٩٨٢م

وتعتبر الموسيقا التصويرية لمسلسل « الأيام» من أشهر أعمال الفنان عمار الشريعى ، ويقول عنها :« عند قيامى بعملى الموسيقا لمسلسل الأيام لم أكن محتاجاً لاستخدام موهبتى كمحترف ؛ حيث إننى أعبر عن مشاعر مكفوف أعرفها جيداً ، ويعرفها كل كفيف ، فقد عايشتها لحظة بلحظة ، وعلى ذلك فقد استخدمت مشاعرى الشخصية أكثر من قدراتى التأليفية ...» ولكننا لا نستطيع أن نغفل

الموسيقا التصويرية لمسلسل« رأفت الهجان » التى حازت إعجاب جميع المشاهدين فى أقطار الوطن العربى كله .

ثم بدأ عمار الشريعي بعد ذلك مرحلة التوزيع الموسيقى ، ولمع فيه حتى شهد له بذلك موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب حين طلب من عمار أن يعيد توزيع موسيقا إحدى الأغنيات ، ثم طلب منه أن يعيد التوزيع مرة ومرات وفعل عمار . فقال له الموسيقار محمد عبد الوهاب :« إننى أشعر أنك تستطيع أن تعيد توزيع الأغنية ولو سبعين مرة وبشكل مختلف فى كل مرة ...»

وبهذا كله ـــ النبوغ والكفاح ـــ استطاع عمار الشريعى أن يحتل الآن مكانة سامية بين الملحنين ومؤلفى الموسيقا فى كل العالم العربى . نال عمار تلك المكانة بسعيه الدائب إلى صقل نفسه وتوسيع مداركه بالقراءة المتصلة ومحاولة التعرف على التراث الموسيقى العربى ، وكذلك متابعة كل جديد فى عالم الموسيقا والأجهزة الموسيقية .

ومما يذكر للفنان عمار الشريعى ذلك الجهد الذى يقوم به فى محاولة لنشر الثقافة الموسيقية فى الوطن العربى كله من خلال برنامجه الإذاعى « غواص فى بحر النغم » وكذلك يذكر لعمار الشريعى أنه لا يؤمن بربط الإعاقة بالتفوق ؛ حيث يرى أن الإعاقة ليست لها علاقة بالتفوق وإن كان يمكن اعتبارها حافزاً للإجادة ، ولكنها ليست جواز مرور إلى منطقة التفوق .

ويعيش عمار الشريعى حياته للموسيقا ولزوجته ـــ التى تزوجها مؤخراً ـــ وكل قضيته نشر الثقافة الموسيقية بين الطبقات المتوسطة للشعب العربى .



## من الأمية إلى الدكتوراه

## د . سعيدة محمد حسنى

من الامية إلى الدكتوراه

د . سعيدة محمد حسنى

شيء صعب أن يبدأ إنسان تعليمه فى مرحلة متأخرة من السن ، هذا مع توافر كافة الظروف والقدرات التى تساعده على بدء السير فى طريق التعليم - ولكن ماذا يكون شعور إنسان يبدأ تعليمه فى سن متأخرة بالنسبة لتقاليد التعليم فى مجتمعه مضافاً إلى ذلك حرمانه من نعمة هى أجل شيء يحتاج إليه كل متعلم ، ألا وهى نعمة البصر ؟

ونحن كأفراد عاديين فى المجتمع ننظر إلى ذلك الشخص (السليم جسمياً) الذى يعبر مراحله التعليمية بشكل منتظم - نحن ننظر إليه بشيء من التقدير وربما الإعجاب ، فإذا ماواصل هذا الشخص دراسته العليا ليحصل على أعلى الدرجات العلمية فإنه يصبح نجماً فى المجتمع . ولكن ما الحال بالنسبة لشخص معوق (كفيف) يبدأ دراسته فى مرحلة سنية متأخرة ويحصل على درجة الدكتوراه ، ناهيك أن يكون هذا الشخص الكفيف امرأة فى مجتمع شرقى .

فى ربيع سنة ١٩٥١ م وفى إحدى قرى ريف مصر الجميلة ، ولدت طفلة عادية ككل أطفال الريف ، ولكنها - وبعد أربع سنوات من عمرها - لم تعد عادية ، ولم تعد حياتها ربيعاً كما بدأت .

فى يوم ١٩٥١/٤/١٠ م ولدت الطفلة سعيدة محمد حسنى محمد فى قرية كفر سعد مركز السنبلاوين محافظة الدقهلية ، لأسرة ريفية الجذور والحياة . كانت الطفلة سعيدة ككل أطفال بلدتها تشعر بما يشعرون ، وكانت مثلهم تأمل فى غدٍ مشرق يتسع لأحلام لم تولد بعد ، وآمال فى الحياة وُئِدَتْ فى مهدها وقبل أن تترك لها الفرصة كى تكبر كآمال بقية الأطفال .

عاشت سعيدة سنواتها الأولى ، ولم تكن تدرى ماأخفاه القدر لها من ظلام طويل سوف يسيطر على كل حياتها ، ظلام بلا نهاية تصعب فيه رؤية الأحلام والآمال . كانت سنوات طفلتنا الأولى كسنوات أى طفل فى ريف مصر : لعب ولهو ، قيام وسقوط ، ومحاولات مستمرة للتعامل مع الطبيعة بكافة رموزها : الإنسان والحيوان والأرض . هذه المحاولات تنجح أحياناً وأحياناً تفشل وتبدأ من جديد .

وفى ظل تلك الظروف لم يكن هناك من شىء يميز طفلتنا من سواها من أقرانها ، فهم جميعاً سواء فى كل شىء ، ولم يكن يبدو عليها فى هذه السن مايمكن أن نطلق عليه مرحلة نبوغ مبكرة أو ظهرت عليها أى علامة من علامات التميّز .

حتى جاءها قدرها ساعياً على مهل ، لم ينتظر هذا القدر حتى تتفتح تلك الزهرة وتنضج ، فعاجلها وأصابها بفقد أعز ماتملك طفلة فى سنها ، بصرها ؛ الذى بدونه يصعب عليها التعامل مع أقرانها بنفس الشكل الذى تعودته .

ففى إصابة مفاجئة تطلبت إجراء جراحة عاجلة لتلك الطفلة ، وهى لم تبلغ بعد سن الخامسة من عمرها كان قدرها ألا تنجح هذه العملية ، وخرجت الطفلة سعيدة بعدها وقد فقدت كل مايمكن أن يجعل منها طفلة سعيدة حقاً ، خرجت من هذه العملية وقد ضاع بصرها ، وضاعت معه كل الأشياء الجميلة التى كانت تتمتع برؤيتها على صغر سنها .. ويالحزن تلك الاسرة التى نكبت فى إحدى فلذات كبدها !! أى نكبة تلك التى تنكب بها أسرة وهى تشعر أن أحد أطفالها الذين لم يتمتعوا بعد بمباهج الحياة قد أصيب تلك الإصابة الخطيرة ؟ وأى حزن يمكن أن يطبق على مكان سوف يخيم الظلام الدامس على إحدى زهراته ؟ وأى حيرة وأى غموض يكتنف مستقبل طفل أصيب فى أعظم منحة إلهية للبشر ؟ وكيف يمكن لهذا الطفل أن يتفاعل مع مجتمعه ؟ وإذا كان هذا الطفل فتاة فى ذلك الوقت وفى تلك البقعة من الريف - فأى حياة صعبة ستواجهها ؟ وكيف يمكنها أن تعيش إن جاء يوم لم تجد فيه من يعولها ؟ هل ستموت جوعاً أم سيكتب لها مستقبل ، مستقبل تعتمد فيه على نفسها ، على قواها وقدراتها التى ربما كتب الله لها أن تتفجر فتصبح فى المستقبل عضواً فعالاً فى مجتمعها ينظر إليها المجتمع بجليل الاحترام وعظيم التقدير ؟

فى قريتها ( كفر سعد ) عاشت سعيدة سنواتها الظلماء ، وكانت تحاول أن تفعل ماتفعله بقية مثيلاتها من فتيات القرية ، وكان والداها - وبأسلوب فطرى فى التربية على الرغم من عدم كونهما من المتعلمين - يعاملانها معاملة طبيعية ، فقد كان والدها يتركها ،

لتخرج وتشارك مجتمع القرية وتشارك الأطفال فى لعبهم ولهوهم ، كل ذلك فى محاولة جادة للتفاعل مع المجتمع ومن خلال تلك الظروف الجديدة التى طرأت على جيمع أفراد الأسرة وتأثروا جميعاً بها .

ولكن .. ماذا عن التعليم ؟ هل كتب عليها أن تعيش أميّة ، فى حين كان بقية إخوتها يتعلمون فى المدارس ، وكذلك بقية أفراد القرية ؛ حيث كانت تلك الفترة فى نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات هى الفترة التى أصبح فيها التعليم حقاً للجميع بلا استثناء بنص الدستور ؟

سيطر على طفلتنا سعيدة محمد حسنى شعور بأنها أُميّة ، وذلك حين جاء مندوب المركز لأخذ كل الأطفال الذين أدركوا سن التعليم ، وعندما مدَّ يده ليأخذها صاح فيه أحد الخفراء قائلاً : سيبها ده مابتشوفش ! وهنا أدركت طفلتنا أن هناك شيئاً يجعل منها طفلة مختلفة عن الأطفال ، فهل كُتب عليها أن تكون أُميّة لسبب لا دخل لها فيه ؟ أحست طفلتنا أن عليها أن تبحث عن فرصتها فى التعليم ، ولما سمعت بمدارس المكفوفين طلبت من والدها أن تلتحق بإحدى هذه المدارس التى لم تكن توجد إلا فى القاهرة فى ذلك الوقت ، وألحت فى طلبها ، وسبب هذا الإلحاح هو تلك الوحدة التى كانت تعانى منها كل صباح حين تفارقها صويحباتها ويذهبن الى المدرسة ولايبقى من الأطفال غيرها ، ولكن والدها - على الرغم مما كان يكنه من الشفقة والحب لابنته رفض - وبشدة - أن تذهب ابنته بمفردها

إلى القاهرة تقضى أيامها بعيداً عنه ، وكان ينطلق فى رفضه من مبادىء الريف الراسخة التى لم تكن تعرف أى مبرر يبرر ترك فتاة لبيت والدها والمبيت خارجه لأيام طويلة إلا إذا كانت ذاهبة لبيت زوجها . وهكذا خيّب الأب آمال ابنته فى أن تتعلم مثل بقية فتيات القرية وأطفالها .

لكن سعيدة تلك الطفلة الصغيرة المكفوفة البصر لم تفقد الأمل فى أن تصبح فى يوم ما متعلمة ، فشرعت تجهز نفسها لذلك اليوم ، فكانت تجالس إخوتها ممن يتعلمون فى المدارس وتستمتع إليهم وهم يتناقشون مع أصدقائهم فى موضوعات شتى ، وكذلك تجالسهم وهم يتدارسون موادهم الدراسية ، كل ذلك فى محاولة منها لتعلم ماذا يدور داخل تلك الأبنية التى تسمى بالمدارس والتى حرمت هى من دخولها .

ومرت الأعوام بسعيدة بشكل روتينى يناسب ظروفها وظروف بيئتها حتى تعدت الخامسة عشرة بشهور قليلة ، فتغيرت كل الظروف ؛ حيث فقدوا كل مالديهم ، وكان عليهم أن يتركوا القرية التى ولدوا وتربوا فيها ، وكان مقصدهم القاهرة تلك المدينة الكبيرة يبحث فيها الأب عن فرصة عمل أياً كانت درجة هذا العمل من التواضع ؛ وذلك حتى يتيسر له أن يكمل رسالته تجاه أسرته ويوفر لهم سبيل العيش اللائق .

إذن فقد حانت الفرصة لسعيدة لتذهب إلى القاهرة ، تلك المدينة التى تحوى أملها فى التعلم بمدارس المكفوفين ، وكأن الله سبحانه

وتعالى قد غيّر ماهم فيه من رغد العيش إلى ماصاروا إليه من حال ؛ حتى تنتقل سعيدة تلك الطفلة التى كانت - وحتى هذه اللحظة - بلا مستقبل ، من مجرد طفلة مكفوفة بلا قيمة - إلى القاهرة حيث التعليم الذى كانت تتوق إليه وتتحرق شوقاً إلى أن تصبح مثل بقية إخوتها تعرف مايعرفون ، وحتى تزيل شعوراً كان يسيطر عليها هو أن لها نقيصتين : كف البصر والجهل .

ولكن كيف السبيل إلى التعليم فى ظل هذه الظروف المادية الصعبة التى تحولت إليها حال الأسرة ، فأصبح على الجميع أن يحاول جاهداً لاكتساب عيشه ؛ حتى يحافظوا على تماسك الأسرة ؛ لتظل كما جاءت من القرية وحدة واحدة ؟

وعلى الرغم من أن أحداً لم يطلب من سعيدة أن تعمل فإنها كانت تسعى للعمل على الرغم من صغر سنها وكفّ بصرها ؛ وذلك حتى تستطيع أن تقنع نفسها والآخرين بأنها عضو نافع فى الأسرة لاعبءٌ عليها ، والتحقت بمعهد النور والأمل للتأهل مهنياً لعمل معين ، وكان العمل الذى اختارته هو التدريب على صناعة السجاد ، على أن هناك شيئاً مهماً لايمكن لسعيدة أن تحصل على شهادة التأهيل المهنى دونه ، ألا وهو تعلم القراءة والكتابة بطريقة « برل » وهو الشىء الذى كانت تجهله جهلاً تاماً ، فكان حتماً أن تلتحق فى نفس المعهد بقسم محو الأمية حتى تحصل على مايفيد أنها تجيد القراءة والكتابة بطريقة برل .

وكانت هذه هى بداية رحلة سعيدة من التعليم .. فى سنة

١٩٦٦ م بدأت سعيدة تعرف طريقها للتعليم ذلك الطريق الذى لم تجده على تلك الدرجة من السهولة التى كانت تتوقعها ؛ حيث لاقت العديد من المشكلات ، وخاصة فى تعلم القراءة والكتابة بطريقة « برل » فقد فشلت فى البداية – وبشكل ذريع – فى تعلم « برل » حتى كاد الشعور بالفشل يتسرب إلى نفسها ، وأوشكت أن تظن أنها لاتصلح للتعليم كما كانت تعتقد ، وكان عليها أن تحاول مرات ومرات قبل أن تتأكد من هذا الشعور ، وأتاح لها الله من استطاعت أن تبسط لها هذه المشكلة – مشكلة الكتابة بطريقة « برل »بشكل جعل سعيدة تحب تعلمها ، واستطاعت أن تتلاءم مع مدرستها الجديدة ، وكان تعلم القراءة والكتابة محوراً ارتكز عليه تفكير سعيدة ؛ الذى انطلق باحثاً عن خطوات أخرى ينتهجها بعد القراءة والكتابة ، انطلق يبحث عن التعليم النظامى فى محاولة أخيرة من سعيدة لتلحق ركب العلم والمتعلمين فى هذه السن المتأخرة ، حيث اقتربت سنها من السادسة عشرة ، ففى هذه السن يكون المتعلم النظامى قد دخل المرحلة الثانوية ، إذن فعليها أن تقطع هذا الطريق الطويل الذى سبقت فيه ، وكان عليها أن تحاول بكل طاقاتها لتشق طريقها وسط الظلام الذى أطبق عليها ، وحتى تزيل من نفوس كل من حولها أى شعور بالعطف عليها وتثبت لهم أنها فرد عادى تستطيع أن تحقق مايحققون وزيادة ، واستمرت سعيدة فى محاولاتها الدائبة من أجل التعلم حتى قررت أن تبدأ مشوارها التعليمى ، وذلك بعد أن قضت سنة كاملة فى قسم التأهيل المهنى بمعهد النور والأمل ، فتقدمت لامتحان الشهادة الابتدائية من المنازل وحصلت عليها بتفوق ،

وتقدمت بعد ذلك لدراسة الشهادة الإعدادية وأثناء دراستها لهذه المرحلة كانت فترة التأهيل المهنى لها قد انتهت ، وكان عليها أن تترك المعهد على أن تتردد عليه مرة كل أسبوع لمتابعة مناهج المرحلة الإعدادية ، ولم تكن سعيدة تصدق أن أقدامها قد عرفت طريق التعليم بعد أن كادت تيئس من أن يكون لأقدامها موضع على هذا الطريق ، وبعد كثير جهد شاركت فيه الأسرة ابنتها حيث أسهم الجميع معها يقرءون لها ويشجعونها ويحاولون تبسيط الأشياء لها - كانت النتيجة أن كلل الله جهود الجميع بأن حصلت الطالبة سعيدة محمد حسنى على الشهادة الإعدادية بتفوق وهى فى سن التاسعة عشرة من العمر ، وهى سن لاتمكنها من الالتحاق بالمرحلة الثانوية ؛ ولكن نظراً لتفوقها اعتبرها المسئولون حالة استثنائية ، وسمحوا لها بدخول المرحلة الثانوية .

كان كل يوم يمر بفتاتنا تزداد فيه المناهج صعوبة ، وتزداد فتاتنا صلابة وصموداً من أجل تحقيق الهدف المنشود ؛ من أجل أن تشبع طاقاتها تلك التى بدأت تتفجر وتزداد تفجراً يوماً بعد يوم والتى بدأت تحثها على بذل المزيد من الجهد المضاعف من أجل تحقيق كل الأحلام التى طالما داعبت خيالها ، وكل يوم يمر على سعيدة تزداد فيه بصيرتها قدرة وتزداد حياتها ضياءً ، وتبصر عيناها بنور العلم الذى ملأ عليها حياتها ، وأصبح يهديها فى حياتها بعد أن كانت تعانى من التخبط فى ظلمات الجهل وكف البصر ، وبالرغم من ضعف إمكاناتها المادية فإن إرادتها يوماً لم تضعف ، بل كانت كلما اشتدت إمكاناتها فى الضعف اشتدت عزيمة سعيدة وإرادتها فى القوة ، حتى

استطاعت – وبعد كبير معاناة – أن تنال الشهادة الثانوية ؛ لتلتحق بكلية البنات .

وفى أثناء تلك الفترة الهامة والمرحلة المصيرية التى كانت تخوضها سعيدة بعد دخولها الجامعة ؛ تحقيقاً لذلك الأمل الذى ظل يراودها طوال سنوات حياتها المظلمة – فى تلك الأثناء عينت فى شركة ممفيس الكيماوية بعد ترشيح التأهيل المهنى لها ، وعملت فى هذه الشركة عاملة فى قسم التعبئة والتغليف .. وعلى الرغم من ضيق وقتها ألا أنها ظلت تعمل وتدرس ، مع وضع ظروفها الخاصة فى الاعتبار ومع ضيق وقتها ، ولم تكن تتنازل عن الحصول على تقدير مرتفع كل عام حتى استطاعت فى النهاية أن تحصل على الليسانس عام ١٩٧٧ م لتثبت للجميع ولنفسها قبلهم أنها لاتقل كفاءة عقلية عن أى ممن حولها ، وأن ظروفها وإعاقتها لم تكن إلا حافزا لها على السعى لمواصلة النجاح من مرحلة إلى أخرى فى تتابع مستمر غير منقطع ، لاتدع عقبة فى طريقها إلا أزالتها ، ولم تكن تسمح لاى ظرف من الظروف أن يعوِّق وصولها إلى ماتبغى من نجاح .

لكن هل هذه هى نهاية طموح سعيدة محمد حسنى ، تلك الفتاة الكفيفة التى كُفَّ بصرها وهى ماتزال طفلة لاتعى صور ماحولها جيداً ، تلك الطفلة التى صممت على أن تكون كما أرادت لنفسها ، فكافحت كل الظروف المادية والاجتماعية ، وكافحت قبل كل ذلك الإعاقة ؟ هل الحصول على الليسانس هو نهاية طموح فتاة على تلك الدرجة من التصميم والعزم ؟

بعد حصول سعيدة على الليسانس فى التاريخ من كلية البنات استمرت فى عملها كما هى عاملة فى شركة ممفيس الكيماوية فى قسم التعبئة والتغليف ، ولكن شيئا فشيئاً بدأت معاملة زملائها فى العمل تتغير وأسلوبهم فى التعامل معها يتبدل ؛ فقد أصبح الليسانس يمثل بالنسبة لهم حاجزاً نفسياً يعوقهم عن التجاوب معها كما كانوا . وعلى النقيض فقد وصلت علاقاتها بالمسئولين فى الشركة إلى أحسن حالاتها حيث رأوا فيها نموذجاً للفتاة المكافحة التى تحملت الكثير من الأعباء من أجل تحسين وضعها العلمى ، ولما فشلت سعيدة فى الوصول إلى نقطة تلاقٍ بينها وبين زملائها فى العمل فضلت ترك العمل فى الشركة على الرغم من حاجتها الشديدة لمرتبها الذى كان يتضاعف حتى بلغ ١٠٠ جنيه وهو كثير إذا نظرنا إليه بمقاييس تلك الفترة ، والتحقت بالعمل مدرسة فى إدارة شبرا التعليمية ، وتضاءل مرتبها إلى الربع حيث بلغ ٢٤ جنيها فقط لاغير ، وكان عليها بناءً على ذلك – أن تتنازل عن طموحاتها فى إكمال دراستها الجامعية ، ولكنها رفضت ذلك بشدة وأبى طموحها أن يتوقف عند تلك الدرجة ، فأكملت دراسة السنة التمهيدية للماجستير والتى كانت قد بدأتها أثناء عملها بالشركة ، وبعد نجاحها ، راحت تعمل للحصول على الماجستير واختارت موضوعاً شيقاً لذلك وهو : « اليهود فى مصر من ١٨٨٢ ـــ ١٩٤٨م » وهى تستعرض كافة جوانب الحياة اليهودية على أرض مصر . ونالت سعيدة درجة الماجستير بتقدير امتياز . ولم يكن الحصول على درجة الماجستير بهذه السهولة التى يمكن أن تحويها سطور كتاب ؛ ولكنها كانت خمس سنوات من المعاناة والصبر

والاكتفاء بالحد الأدنى من الحياة وتوفير أكبر قدر من المال لشراء الكتب والمراجع . وكانت مشكلة المشكلات بالنسبة لها هى عدم وجود مراجع فى التاريخ مكتوبة بطريقة برل ، وعلى ذلك فقد كانت دائما فى حاجة إلى من يقرأ لها المراجع المطلوبة لإنجاز الرسالة ، على كثرة تلك المراجع وارتفاع ثمنها ؛ كانت هاتان المشكلتان كفيلتين بصرف همها عن إتمام الرسالة .

وفى نفس العام الذى نالت فيه سعيدة محمد حسنى درجة الماجستير - ١٩٨٤ - بدأت عملها لنيل درجة الدكتوراه التى كان موضوعها : « الحياة النيابية فى مصر من سنة ١٨٨٢ م - ١٩١٤ م » وفى عام ١٩٨٩ م نوقشت رسالة الدكتوراه المقدمة من الطالبة/سعيدة محمد حسنى فى جلسة علنية ، وأعلنت لجنة المناقشة النتيجة ، وكانت نيل الطالبة درجة الدكتوراه بامتياز . وكان هذا الإعلان بمثابة اعتراف عام من المجتمع بأن هذه الفتاة الكفيفة المحدودة الإمكانات المتفجرة الطاقات عضو نافع فى المجتمع ، وأن هذه الفتاة التى بدأت تعليمها فى السادسة عشرة من عمرها قد نجحت فى اختبار القدر لها بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى .

وقد انتقلت د . سعيدة محمد حسنى إلى العمل مدرسة بمعهد النور والأمل بعد نيلها لدرجة الماجستير ومازالت تعمل به حتى الآن .

# الخـــاتمة

وبعد ، فهذا عرض موجز لقصص هؤلاء الذين اعتبرهم المجتمع معوَّقين ؛ لكنهم استطاعوا أن يحولوا هذه النظرة التى كلها شفقة وعطف إلى نظرة كلها إعجاب وتقدير ، بل استطاعوا أن يجعلوا عامة الناس يعيدون حساباتهم فى نظرتهم لأى معوَّق .

لقد استطاع هؤلاء المعوقون أن يثيروا سؤالاً وهو : من هو المعوق ؟ وهل هو الإنسان الذى فقد حاسة من حواسه واستطاع أن يحقق ذاته ويتفاعل مع المجتمع ويؤثر فيه أم أن المعوَّق هو ذلك الإنسان الذى لايعرف طاقاته وليست لديه القدرة على تحقيق ذاته ؟

ولو حاولنا نحن أن نجيب عن هذا السؤال فإننا ننظر لحياة عميد الأدب العربى ، د . طه حسين ، ذلك العملاق الذى استطاع أن يصل إلى مكانة يصعب على من هم فى ظروف أفضل من ظروفه – فى ذلك الوقت – أن يحققوها ، ونجده – ككفيف – ينظر لفقده بصره على أنه ليس حائلاً بينه وبين التمتع بالطبيعة والحياة ، ونجده يحاور أبا العلاء فيقول : « وكنت أحدث أبا العلاء بأن تشاؤمه لامصدر له فى حقيقة الأمر إلا العجز عن ذوق الحياة ، والقصور عن

الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ، ومن نعيم ولذة ، وكان أبو العلاء يقول لى : فإنك ترضى عما لاتعرف وتعجب بما لاترى . وكنت أقول له : إن لم أعرف كل شيء فقد عرفت بعض الأشياء ، وإن لم أر الطبيعة فقد أحسستها » فإذا انتقلنا لقصة هيلين كيلر تلك المعجزة المعوّقة نجدها تتحدث عن نفسها وعن مشوار حياتها والعقبات التى قابلتها وكيف تغلبت عليها ، كل ذلك دون أن نشعر أننا أمام شخصية معوّقة ؛ ذلك أن إرادتها كانت لها بمثابة البصر والسمع واللسان .. ثم كان أبو العلاء الشاعر الفيلسوف الذى جعل اسمه يتردد على الألسن من ألف عام وحتى الآن . ومن خلال آراء بعض الشعراء وأصحاب الفكر والرأى استطعنا أن نجلو عبقرية الرجل ، ونحيط بالكثير من جوانب شخصيته الفذة .

ومن خلال النظر إلى شخصيات عصر الثورة التكنولوجية والأجهزة الحديثة الألكترونية نستطيع أن نقول : إن هذه الشخصيات الثلاثة المعاصرة لنا ، قد استطاعت أن تحقق ذاتها أيضا وتتفوق وتبرز ، وبالرغم من تنوع بيئاتهم واختلاف ظروف حياتهم فإن الإرادة جمعتهم ، والبحث عن التفوق جعلهم يبدون كأشخاص أسوياء عاديين ، فنجد د . أحمد يونس استطاع أن يبرز صحفيا وناقداً سينمائياً ، والفنان عمار الشريعى برز موسيقاراً « يستخدم إحدى الوسائل التكنولوجية فى الموسيقا » ود . سعيدة محمد حسنى استطاعت أن تصل إلى درجة الدكتوراه بعد الأمية .. ألا تعد إنجازات هؤلاء الأشخاص إجابة كافية عن السؤال : من هو المعوق ؟!

على أننا لانستطيع فى هذا المقام أن نغفل دور المجتمع فى تشكيل أفراده وتفجير طاقاتهم ، فحيث يغفل المجتمع الاستفادة من طاقات أفراده ، يصبح مجتمعاً معوِّقاً لأفراده يقف فى طريق تفوقهم وإبداعهم .

**وفى النهاية :**

أحمد الله جلّ ثناؤه على أن وفقنى فى إنهاء كتابة الجزء الأول من هذه السلسلة ، ولعلى أكون قد وفقت بعض الشيء فى نقل صور صادقة لحياة أولئك الذين شكّلوا بإرادتهم صورة واقعهم ومستقبلهم ، واستطاعوا أن يكونوا نبراساً وحافزاً لمن لاإرادة لهم حتى يطرحوا اليأس جانباً ، ويعملوا كأناس أسوياء لهم من الإرادة مايستطيعون أن يحققوا به مايظن البعض أنه مستحيل . فبالإيمان بالله - عز وجل - وبالإرادة يستطيع كل منا أن يثبت ذاته . وقوة الإرادة قد لاتتطلب منا سوى مجرد محاولة للتعرف على مكامن قوتنا وضعفنا واستغلالها والإصرار على أن نكون أو لانكون .

**سامى حسن البجيرمى**

# قائمة المحتويات

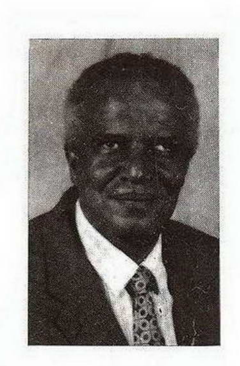
رقم الإيداع ٢١٤٢ لسنة ١٩٩٢

I.S.B.N
977 — 5083 — 75 — 3




الجمع التصويري .. **غرافيكس** للتجهيزات الفنية ت . ٢١٢٩١٨٤

## هذا الكتاب



إن القدر عندما يمتحن شخصاً بحرمانه من إحدى النعم كالسمع أو البصر أو غيرهما – هو نفسه الذى يمنح ذلك المحروم إرادةً تفوق الخيال ، ولا تعرف المستحيل ، إرادة تجعله يبدع ما لم يبدعه غيره من أولئك المتمتعين بتلك النعمة ؛ وذلك حتى تتحقق العدالة الإلـٰهية ، ويحيا حياة يكتنفها الرضا والاطمئنان ...

وكتابنا هذا يعرض نماذج من هؤلاء المعوقين الذين تسلحوا بإرادة صلدة ، شقوا بها طريقهم وسط صخور الحياة ، فنبغ كلُّ منهم فى مجاله ، وأبدع إبداعاً جعله حديث التاريخ ، وأنشودة الزمان !!!

من منا لا يعرف أبا العلاء المعرى شاعراً مبدعاً ، وفيلسوفاً خلده الزمان ؟

ومن منا لا يعرف طه حسين الأديب ، الناقد ، الوزير ، المصلح الجرىء؟

ومن منا لا يستحوذ عليه العجب عندما يقرأ عن هيلين كيلر ، تلك الأعجوبة التى بذت الملايين من المتمتعين بما حرمته من نعم السمع والبصر والكلام ؟

ومن منا لم تسحره موسيقا عمار الشريعى وتسيطر على وجدانه ؟

ومَنْ مِن المبصرين يبلغ ما بلغه أحمد يونس ، فيدرس فى عام واحد بإحدى كليات جامعة بأسبانيا ما يدرسه أبناؤها فى أربعة أعوام ، وينال الليسانس بدرجة ممتاز ، ثم لا يهدأ له بال حتى ينال الدكتوراه بدرجة ممتاز أيضاً ؟؟

ولعله مما يزيد من قيمة هذا الكتاب – أن مؤلفه واحد من أولئك الذين لم يعوقهم عماهم عن نيل مناهم ، ومن ثم جاء حديثه عن هؤلاء المعوقين صادقاً قوياً يشق طريقه إلى أعماق القلوب ، ويأخذ بالألباب .

الناشر





الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH — PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO